كورونا.. النبوءة والمؤامرة

ملفات مجهولة عن الأوبئة عبر التاريخ

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: ** / 2020

الترقيم الدولي: ** – ** – 838 – 977 – 978

الكتاب: كورونا.. النبؤة والمؤامرة

المؤلف: عبد السلام فاروق – د. محمود نبيل محمود

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

كورونا.. النبوءة والمؤامرة

ملفات مجهولة عن الأوبئة عبر التاريخ

عبد السلام فاروق

د. محمود نبيل محمود

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

مقدمة

نبأ الساعة اليوم فى سائر أنحاء العالم هو فيروس كورونا..

بات كورونا نجم المانشيتات الأوحد؛ تترصد أخباره سائر الفضائيات فى كل أنحاء العالم، وتَتبَّع تداعياته كافة وكالات الأنباء الدولية وشبكات الإعلام ومراسلى الصحف. أرقام الضحايا فى ازدياد كل ساعة، والمانشيتات والعناوين تتغير كل دقيقة فى محاولة لملاحقة شلالات الأخبار التى لا تنتهى.

وفى فضاء الإعلام الجماهيري الموازى، وعبر وسائل التواصل الاجتماعى الرقمية هستريا أخرى من أرقام وأخبار ومعلومات وقصاصات مقروءة ومسموعة ومرئية أكثرها كاذب ملفق، وأقلها حقيقي رصين.

تلك الحالة المكثفة المستمرة من الرقابة والترصد والتتبع والتلقى والتشبع بأخبار ذلك الفيروس اللعين، أدت لمضاعفة الذعر والقلق والارتباك لا للشعوب وحدها بل للقادة والزعماء وحكام الدول أنفسهم. أحدهم يعلنها بلا مواربة ولا دبلوماسية قائلاً لشعبه: «استعدوا للموت القادم»، وآخر يتحول إلى «دون كيشوت» معاصر فيعلن الحرب الشعواء على فيروس مجهرى لا يُرى بالعين، وثالث

يهدد كورونا ثم يهدد أوروبا ثم يعلن فى يأس أن حلول الأرض انتهت، ولا بديل عن حلول السماء!

هكذا فى أسابيع وشهور قليلة تحطمت السياسة، وتبخرت الدبلوماسية، وفُضحت الحضارة، وانكشف زيف شعارات الحداثة والعولمة عندما سقطت الأقنعة وبدا خلفها زعماء قلوبهم خواء؛ كفَروا بالعلم وآمنوا بضعفهم وانعدام حيلتهم، بعد أن أخضع الوباء رقاب الجميع، واستسلمت الرايات أمام راية سوداء تحصد الأرواح دون تمييز أو محاباة؛ الأثرياء والأقوياء والزعماء كالعامة جميعهم سواء أمام الحُكم المبرم.

سادت خلال أسابيع قليلة قوانين كورونا، فلا دستور ولا تشريع إلا ما يُقِرُّه كورونا.. دول أباحت الإعدام الفورى لمن لا يلتزم بالحجر الصحى وإغلاق الحدود. دول أخرى دفعت بالضوارى والأسود فى الشوارع لإجبار الناس على البقاء فى البيوت. ناهيك عن الغرامات الفادحة والعقوبات الرادعة لمن تُسوِّل له نفسه عدم الالتزام بقانون الوباء! وبرغم كل القوانين والعقوبات والسلطات التنفيذية والقبضة الحديدية، استمر الوباء يخترق البلدان ويتجاوز الأسوار والجدران غير عابئ بشئ ولا بأحد.

العجيب أن تلك الأحداث أبرزت ما لهذا الفيروس من فلسفة كاشفة..

الناس جميعهم تمايزوا إلى فئتين لا ثالث لهما: فئة أنانية نرجسية لا ترى إلا نفسها، وفئة تؤثر الآخرين على نفسها. دول بأكملها تلفَّحت بثوب الأنانية البغيض فأعلنت أنها لا تعبأ إلا بشعبها ورعاياها وأن «جحا أولَى بلحم ثوره»؛ هكذا اختفى المتبرعون الدعائيون، ولم يبقَ سوى الرحماء الحقيقيون. والمؤكَّد أنهم نادورن فى هذا العالم. هذا ما كشفته الجائحة وما فرضته من امتحان فاضح لحقيقة النفوس.

وقد سقط العالم فى اختباره الأول..

للمرة الأولى يتعرض الناس، كل الناس بلا استثناء، لامتحان موحَّد لا مفرَّ منه ولا مَهرب! وفى هذا الامتحان لم تُبدِ البشرية بشريتها وإنسانيتها بقدر ما أبدت أنانيتها وهشاشتها! فسحبت المنظمات الدولية أيديها، وتركت الكرة فى ملعب الشعوب، حيث كل إنسان مسئول عن نفسه، وكل دولة لا تنشغل بما هو أبعد من حدودها.

الكرة اليوم ولعدة أسابيع أو شهور قادمة فى ملعب كورونا..

فإلى متى يظل العالم خاضعاً للاجتياح الوبائى الرهيب؟

وكيف يكون شكل العالم بعد تمزق الخرائط واختراق الحدود وانهيار الاقتصاديات؟!!

تساؤلات ربما وجدنا لها إجابات..

أو قد تظل بعض غوامض وخبايا جائحة 2020 مدفونة للأبد.

الأمر المؤكد أن كورونا فرض سيطرته على العالم، وبدا كأنه الحاكم الوحيد للعالم؛ بعد أن أخضع أمريكا لسيطرته.. إلى حين.

إن كوفيد 19 ظل على مدى نصف عام يبدو وكأنه الحاكم الأوحد للعالم!

ولأن أمثال تلك اللحظات تظل باقية فى ذاكرة التاريخ. كان لا بد من تناولها بالسرد والتقصى والتحليل والرصد..

الفصل
الأول

عصور الأوبئة

(..على الرغم من أن الأمراض المعدية قد تبدو رهيبة مروعة، فإن أفعالها «patho-gens»

فى الظروف العادية تكون طبيعية..لكنَّ الظروف لا تكون دائماً طبيعية.).

ديفيد كوامن - من مقدمة كتاب (الفيض،أمراض الحيوانات المعدية وجائحة الوباء التالية بين البشر)

تاريخ الأوبئة فى العالم القديم

أغرب حقيقة فى علوم الوبائيات «Epidemiology» هى أن الفيروسات الوبائية المهلكة، ومنها كورونا، هى أكثر أنواع الجراثيم هشاشةً وضعفاً؛ إذ أن أغلبها لا يتحمل الجفاف ولا حرارة الشمس ولا المطهرات والمنظفات التقليدية. هذا عن حالها الطبيعى خارج جسم العائل «In Vitro»، بينما إذا تمكنت من جسم العائل «In Vivo» تتخذ منه وسيلة للتكاثر الكثيف، بل والأسوأ: وسيلة لنقل العدوى السريعة إلى أكثر عدد ممكن قبل أن تظهر أية أعراض على العائل المصاب!

كورونا لم يكن الأكثر إهلاكاً عبر العصور قياساً إلى أعداد الضحايا المفزع فى أوبئة العصور القديمة، خاصةً وأن كورونا فى اتجاهه للزوال والانتهاء قريباً بإذن الله، إما بفضل حرارة الشمس والتغير المناخى، أو ربما قبل هذا فى حالة التوصل إلى علاج أو لقاح آمن وفعال. بينما كانت أوبئة العصور القديمة تتناسب طردياً مع ثُلاثية الجهل والحروب والقذارة، وظلت تبيد أعداداً ضخمة لدى انتشار الجائحة، حتى جاء ابتكار اللقاحات بتجارب لويس باستير ولازارو سبالانزانى وروبرت كوخ فى أواخر القرن التاسع

عشر، والتى سبقها لقاح الجدرى لمبتكره إدوارد جينر عام 1798م.. ثم اكتشاف البنسللين على يد ألكسندر فلمنج عام 1928م، بينما لم يتم طرحه للاستخدام إلا بعد أبحاث هوارد فلورى و أرنست تشين حينما قررا تجربة البنسللين على المرضى عام 1941م بعد استكمال أبحاث فلمنج، ولم يُتَح البنسللين كعلاج حتى عام 1950م.

وبرغم أن ابتكار اللقاحات والمضادات الحيوية أضعف كثيراً من فرص انتشار الجوائح القديمة كالطاعون والتيفوس والجدرى والكوليرا، إلا أن الأوبئة ظلت تنتشر وتتفشى فى القرنين التاسع عشر والعشرين بسبب ظهور أنواع أخرى جديدة أو متحورة أو مُصنَّعة من الجراثيم المهلكة، كالإيدز والإيبولا والكورونا وأنفلونزا الخنازير.

تخطت جائحة كورونا حاجز 6 مليون مصاب وتجاوز عدد الوفيات نصف مليون وفاة.. بينما كانت أوبئة العصور القديمة قادرة على العصف بحياة عشرات الملايين من البشر خلال موجات انتشارها المريعة.. ولعل من أشهر الجوائح التى أصابت العالم عبر التاريخ حتى مطلع القرن التاسع عشر:

1 – وباء أثينا (430: 427 ق م):

يُعتقَد من خلال الأوصاف التى جاءت فى كتابات المؤرخ اليونانى «ثوكوديدس» أن وباء أثينا كان بسبب الحمى التيفية «Typhoid Fever»، وهو واحد من أقدم الأمراض التى أصابت البشر

حيث يرجح العلماء أن ظهوره يرجع إلى نحو 200 ألف عام! وهو نوع من الأمراض البكتيرية الناتجة من تناول طعام أو شراب ملوث ببكتريا السالمونيللا المعوية «Salmonella Typhi» بما يتسبب فى إحداث حمى طويلة وإسهال وطفح جلدى، وينتهى بحالة من النزيف المعوى أو إصابة المخ.

كان مما جاء فى وصف ثوكوديدس عن أحوال الناس فى التعامل مع ضحايا الوباء: (.. كان هناك هؤلاء الفقراء الذين غُطّوا بالتراب ونبشت جثثهم الكلاب وأخذوا يلوكونها فى المدينة، ولم يكن هناك أى أحد يبكى على أى ميت، حيث توقَّع كل واحد أن يموت.)..

2 – **وباء أنطونين** (165: 180 م):

ذكر المؤرخ الرومانى كاسيوس ديو أن هذا الوباء تسبب فى وفاة نحو 2000 شخص يومياً، ولو صدقت هذه الإحصائية التقريبية، فكم تكون أعداد القتلى خلال 15 سنة هى عمر هذا الوباء؟

يُقدَّر متوسط عدد ضحايا هذا الوباء خلال الفترة الطويلة التى مكثها بين الناس بنحو خمسة ملايين متوفى، ويُرجَّح أن الوباء الذى استفحل بين الناس وقتذاك كان وباء الجدرى «Smallbox»، وهو ينتج عن الإصابة بفيروس «Variola» الذى يتسبب فى حمى وطفح جلدى منتشر، وتنتهى أكثر الحالات بالموت خاصةً فى النوعين النزفى والخبيث «haemorragic – malignant».وهو وباء قديم

يبلغ عمره أكثر من 3000سنة، وقد أحيت منظمة الصحة العالمية فى ديسمبر 2019م الذكرى الأربعين لاستئصال مرض الجدرى نهائياً من العالم عام 1979م، بعد القضاء على آخر منطقة لتوطن الجدرى فى الصومال، وبعد أن قضى مرض الجدري، بحسب منظمة الصحة العالمية على نحو 300 مليون شخص فى القرن العشرين وحده.

ولأن حالات الأوبئة فى التاريخ القديم يصعب حصرها جميعاً، ركزت كتب التاريخ على ذكر الحالات الأكثر انتشاراً وفتكاً بالبشر. ولهذا يُقدَّر عدد ضحايا مرض الجدرى خلال الألف عام السابقة بنحو 500 مليون شخص! وأنه أباد حضارات بأكملها كحضارتى الإنكا والأزتيك.

3 – **طاعون جستنيان (541: 542م):**

تلك هى فترة الانتشار الأولى لأسوأ طاعون وبائى هو الأكثر فتكاً فى التاريخ، إذ تقدر أعداد الوفيات خلاله بنحو 25: 50 مليون شخص، وهو ما يعادل 13: 26٪ من سكان العالم آنذاك!

تغلغل الوباء القاتل فى أوصال الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية وامتد عبر المتوسط إلى سائر الدول الساحلية، وكان السبب فى انتشار المرض الفئران السوداء الناقلة للبراغيث الحاملة للمرض، تلك الفئران التى انتقلت لبلدان المتوسط عبر السفن التجارية الناقلة للبضائع من بلد إلى بلد. وبرغم إصابة «جستنيان

الأول» الإمبراطور البيزنطى بالمرض إلا أنه نجا من الموت، وهذا هو السر وراء التسمية.

والطاعون «Plague» هو مرض بكتيري تسببه عصيات «Yersenia Pestis» التى تسبب الحمى والتهاب الغدد الليمفاوية والتسمم الدموى والطفح الجلدى وإصابة المخ التى تنتهى فى أغلب الحالات بالموت. ولأنه مرض بكتيري فإن علاجه بأنواع من المضاد الحيوي قد تفلح فى القضاء على البكتريا إذا عولجت مبكراً.

ويرجع تاريخ الطاعون الدملى إلى نحو 3000 سنة قبل الميلاد، حيث دلت الأحافير على وجود الحمض النووى للبكتريا المسببة للمرض فى هياكل عظمية تعود لهذا التاريخ الضارب فى القدم.

4 – **طاعون عمواس** (639: 640م):

يعتبر أحد امتدادات طاعون جستنيان الذى استمر لأحقاب طويلة فى شكل موجات متتالية من تفشى الوباء فى إحدى مناطق أوروبا والمتوسط.

تأتى أهمية هذا الوباء فى كونه أول تجربة عملية للحجر الصحى فى العالم. حيث طبَّق فيه المسلمون تعاليم السنة المحمدية فى ضرورة إغلاق الحدود ومنع الدخول والخروج من منطقة الوباء إلى حين انتهاء نوبة الجائحة، وهو ما أسهم فى تقليل نسبة الضحايا، كما منع تفشى المرض للمناطق والبلدان المحيطة.

وقد جاء ذكر هذا الطاعون فى كتاب «تاريخ الطبري»، وفى كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير، كما أكد المفسرون أنه المقصود فى معنى الحديث النبوى القائل: «اعدد ستاً بين يدى الساعة، وذكر منها موتان يأخذ فيكم كعقاص الغنم..» كجزء من حديث طويل من أحاديث البخارى.

بدأ الطاعون فى مدينة عمواس «الفلسطينية» بعد فتح بيت المقدس أيام خلافة عمر بن الخطاب، وتسبب فى وفاة 25: 30 ألفاً بينهم كثير من صحابة النبي أشهرهم: معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن الجراح، وسهيل بن عمرو وابنه أبو جندل.. وغيرهم.

وقد كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بأن يصحب سكان المناطق المتضررة ويتجه بهم إلى الجبال، حيث لا ينتشر الوباء هناك. وانتهى الوباء بهذه الحيلة فعلاً.

5 – **الموت الأسود** (1338: 1351م):

تلك هى الموجة الثانية الأشد فتكاً من موجات الطاعون الأوروبى. تكرر بنفس سيناريو سفن البضائع التجارية المليئة بالفئران السوداء الناقلة للمرض، ما تسبب فى تفشي الطاعون فى تخوم الساحل الأوروبى، ومنه توغل إلى روسيا وبعض مناطق الشرق الأوسط والأقصي.. وأدى لوفاة ما يزيد عن 25 مليون شخص، حتى أن ثلاثة من كل عشرة أوروبيين قضوا نحبهم جراء

الوباء. وتقفز بعض التقديرات بالرقم ليصل إلى أكثر من مائة مليون معظمهم من قارة أوروبا التى هلك ثلث سكانها بسبب الوباء!

6 – **وباء التعرق الإنجليزى**(1516: 1529م):

مرض غامض شديد الفتك ضرب إنجلترا ثم أوروبا فى شكل موجات متتابعة منذ عام 1485م، وحتى عام 1551م، وبلغ ذروته فى الفترة الوسطى بين التاريخين. ولم يُعرف السبب وراء الوباء الغامض الذى كان يتسبب فى موت سريع فى غضون ساعات من الإصابة. والبعض يشتبه فى أنه كان بسبب فيروس «هانتا» الذى ينتقل من فضلات الفئران.

7 – **وباء المستعمرات الثلاثة عشرة** (1617: 1634م):

لدى دخول الأسبان منطقة وادى المكسيك (1521م)، وتصدى شعوب الأزتيك لهم، اجتاح وباء الجدرى تلك المنطقة وتسبب فى موت أكثر من نصف سكان تلك الحضارة التى انتهت بفعل الوباء ثم الغزاة.

وفى موجة تالية عظمى من موجات وباء الجدرى، أصيبت أمريكا بالجائحة المهلكة، بدءاً من ولاية «ماساتشوستس» وامتدت إلى مستعمرة بليموث، ثم إلى منطقة نهر كونيتيكت. وحصد الوباء أعداداً هائلة من شعب الباتوكست، واعتبر الحاكم «جون وينثروب» هذا الوباء منحة إلهية للمستعمرين الجدد لإقامة دولتهم الناشئة على أشلاء ضحايا الوباء!

أوبئة أخرى أصابت تلك المستعمرات، كالحصبة التى انتشرت فى بوسطن ونيوإنجلاند وكندا فيما بين (1713: 1715م)، ثم عادت عام 1747م لتضرب نيويورك وبنسلفانيا وكارولاينا الجنوبية. والأنفلونزا التى أودت بحياة المئات فى فيرمونت وفيرجينيا عام 1793م.

وفى فيلادلفيا انتشر وباء الحمى الصفراء عام 1793م وتسبب فى موت نحو 45 ألف شخص.

8 – **طواعين أوروبا:**

بين أعوام (1629: 1631م) حدث طاعون إيطاليا الذى أودى بحياة نحو 280 ألف شخص.. وبين سنوات (1647: 1652م) حدث طاعون أشبيلية الذى أودى بحياة آلاف الأسبانيين.ثم طاعون هولندا، والذى تلاه طاعون لندن الكبير (1665: 1666م) وقُدِّر عدد ضحاياه بنحو 100 ألف شخص. ثم طاعون فيينا الكبير بالنمسا فى عام (1690م).وفى عام (1720م) حدث طاعون مارسيليا الكبير الذى تسبب فى قتل نحو 100 ألف شخص خلال أيام قليلة!

9 – **وباء الكوليرا** (1817: 1860م):

ظهرت الكوليرا فى شكل وبائى أول الأمر فى الهند عام 1817م، ثم انتقلت لبريطانيا ومنها إلى العالم من خلال تجارتها عبر البحار بما عرف بشركة الهند الشرقية..

وعلى مدى القرن التاسع عشر فقدت بريطانيا نحو 130 ألفاً من سكانها فى خمسة موجات متعاقبة من وباء الكوليرا.. بينما قتل الوباء عدداً مهولاً من سكان الهند والبنغال يقدر بحوالى 23 مليون شخص.. بخلاف ضحايا الوباء فى الصين وأندونيسيا وروسيا حيث أودى بحياة أكثر من 2 مليون آدمى. هذا فقط خلال الموجة الأولى من جائحة الكوليرا التى استمرت فى الفترة من 1816 وحتى 1826م!

وخلال الموجة الثانية من وباء الكوليرا (1829: 1851م) امتد الوباء فى مختلف البلدان الأوروبية كألمانيا وفرنسا والمجر، وبات يُعرف فى لندن باسم: «كينج كوليرا» بسبب سيطرته الواسعة على البلاد. إذ وصل الوباء عبر المحيط إلى ساحل أمريكا الشمالية وأصاب كندا وأمريكا، كما امتد عبر المتوسط إلى مصر ومكة. ووصلت حصيلة الضحايا فى مختلف البلدان إلى نحو نصف مليون شخص. كان منهم الرئيس الأمريكى «جيمس بولك».

الوباء الثالث للكوليرا حدث بين عامى 1852 و 1860م فى قارة أسيا حيث بدأ فى روسيا وامتد إلى الصين واليابان والفلبين وكوريا الجنوبية ثم البنغال ومنها إلى لإيران والعراق والسعودية. وتسبب فى وفاة نحو مليون شخص أغلبهم فى روسيا.

وفى عام 1854م انتشرت الكوليرا فى أمريكا خاصةً فى مدينة شيكاغو وقتل نحو 5٪ من سكانها. ثم حدثت الجائحة الرابعة

للكوليرا (1863: 1875م) فى أوروبا وأفريقيا وبعض مناطق آسيا، وأسقط الوباء نحو 90 ألف حاج، بخلاف ضحايا المرض خلال الحرب البروسية النمساوية (1866م) حيث حصد أرواح نحو 165 ألف شخص منهم إمبراطور النمسا، ووصل إجمالى عدد ضحايا الجائحة نحو نصف مليون شخص.

وفى نهايات القرن التاسع عشر (1881: 1896م) حدثت الجائحة الخامسة لوباء الكوليرا وحصدت نحو نصف مليون حياة فى أوروبا وأفريقيا وآسيا والأمريكتين.

خصائص أوبئة العصور القديمة

فى كتاب (الأوبئة والتاريخ – المرض والقوة والإمبريالية) قدم شلدون واتس منذ اللحظة الأولى، كما يبدو من عنوان الكتاب، تبريراً أو تفسيراً موحداً لتفشى الأوبئة وهو المنطق الاستعمارى الذى لا يعبأ بالإنسانية، بل يعتبرها عبئاً ثقيلاً، وأن البشر مجرد أرقام أو قطعان تساق بالقوة أو تموت حتف أنفها!

وهو المنطق ذاته الذى يحكم فكرة الحروب البيولوجية قديمها وحديثها، حيث لا يعبأ قادة الحروب ومُشعلو الأزمات بأعداد الضحايا مهما بلغ. ولا يتصورون أن يطرق الوباء الذى تسببوا فيه أبوابهم!

ركز الكتاب على سبعة أنواع من الجراثيم الوبائية تسببت فى حالات من الاجتياح الوبائى وسقوط عدد ضخم من الضحايا.

منها الجراثيم البكتيرية كالطاعون والجذام والكوليرا والزهرى، أو الفيروسية كالجدرى والحمى الصفراء، أو أوليات الخلايا كالملاريا. كانت هذه الجراثيم تنتقل إما عن طريق الحشرات والحيوانات كالطاعون والملاريا والحمى الصفراء، أو بالعدوى المباشرة كالجذام والجدرى، أو بالاتصال الجنسي كالزهرى. ولعل من أهم العوامل التى تسببت فى الانتشار السريع للأوبئة انتقال البشر من بلد إلى بلد دون اهتمام بمبادئ الحجر الصحى، أو حتى بمبادئ النظافة الشخصية، خاصةً فى ظل الاحتلال الذى ينشر معه الجهل والفقر فى البلدان التى يحتلها. ومثل هذا الأمر تكرر حتى لدى غزو الأمريكتين، حيث قضت الأوبئة على حضارات بأكملها. وكان سكان تلك المناطق، قبل الغزو، ينعمون بحالة من الصفاء والصحة التامة. بل إنهم انتصروا فى أغلب حروبهم ضد الغزاة الجدد لولا اجتياح الوبائيات لبلادهم.

أيضاً تسببت تجارة العبيد خلال القرن السابع عشر فى ظهور وبائيات جديدة لم تشهدها البشرية من قبل. فمن خلال نقل نحو 30 مليوناً من شعوب الغرب الأفريقي فى ظروف صحية سيئة، ظهرت أوبئة الحمى الصفراء والملاريا والحصبة فى مناطق واسعة بالأمريكتين، وحصدت أرواح الملايين من المستوطنين والعبيد والسكان الأصليين.

وقد شكل النشاط الاقتصادى للقوى الاستعمارية الإمبريالية ومؤسساتها العملاقة فرصة سانحة لانتشار الأوبئة؛ فقد تمت إزالة الغابات وتخريب التربة الزراعية، وهو ما أدى لتكاثر المستنقعات الآسنة وانتشار الحشرات والجراثيم. كما أدى توسيع النشاط التجارى إلى ازدياد حركة الهجرة والتنقل فزادت بهذا رقعة أى وباء قائم.

الأوبئة والجوائح فى العصر الحديث

جاءت نهاية القرن التاسع عشر ومعها الْبشرَى بالقضاء على أكثر الأوبئة بفضل تقدم الأبحاث العلمية، ما أدى لظهور اللقاحات التى كبحت انتشار الجوائح والأوبئة بدرجة كبيرة. وكان تأسيس علم الأحياء المجهرية على يد لويس باستير وروبرت كوخ وكوهان فرديناند له الدور الأكبر فى القضاء على الأوبئة، حيث مثَّل التعرف على الجرثومة الخطوة الأولى فى طريق تصميم اللقاح أو وصف العلاج المناسب.

استطاعت أبحاث لويس باستير فى اكتشاف لقاحات مضادة لمرض الكلِب والجمرة الخبيثة «Anthrax»، كما أسهم وصف روبرت كوخ لجرثومة الكوليرا بشكلها المجهرى المميز، فى وصف علاجها بعد اكتشاف المضادات الحيوية لاحقاً.

تلك الأبحاث هى المقدمة لابتكار وتصميم عدد من اللقاحات الأخرى فى القرن العشرين، وهو ما أسهم فى تقليل فرص تفشى الأوبئة، مثل ابتكار «جوناس سولك» و«ألبرت سابين» لمصل شلل الأطفال، وابتكار «موريس هيلمان» للقاح الحصبة.

واستمرت الأبحاث والاكتشافات حتى توصل العلم إلى لقاحات لحوالى 25 مرضاً من أخطر الأمراض الوبائية كالحصبة والجدرى والكزاز والخناق والسل والتيفويد والنكاف والتهاب السحايا والأنفلونزا والالتهاب الكبدى الوبائى والحمى الصفراء وشلل الأطفال. وأصبح المواليد فى سائر أنحاء المعمورة يتلقون اللقاح المضاد لكثير من هذه الأمراض بشكل تلقائى دورى، واختفت بعض هذه الأوبئة اختفاءً تاماً.

غير أن الأوبئة استمرت رغم التقدم العلمى المضطرد فى حصد أرواح الضحايا، خاصةً فى النصف الأول من القرن العشرين. مثلما حدث فى الموجتين السادسة والسابعة من وباء الكوليرا، والإنفلونزا الأسبانية والجدرى والطاعون.

وخلال النصف الثانى من القرن العشرين انسحبت أكثر هذه الطواعين والأوبئة مع اكتشاف المضادات الحيوية، لكن ظهرت موجات من أوبئة أخرى جديدة، كان أخطرها وأبشعها وباء الإيدز «AIDS».

وباتت الأوبئة منذ ذلك الحين ذات خصائص نوعية مختلفة عما سبقها؛ إذ ظهرت أشكال أخرى من الأمراض المتوطنة والجوائح، كتفشى الالتهاب السحائى فى غرب أفريقيا عام 1996م.. وتفشى وباء السارس التاجى فى آسيا عام 2002م، والليشمانيا فى أفغانستان 2004م، وفيروس الشيكونجونيا فى الهند 2006م، والإيبولا فى

السودان 2004م وفى الكونغو وأوغندا عام 2007م، وحمى الضنك التى تفشت فى مناطق مختلفة وفترات متفاوتة منذ ظهورها الأول فى أمريكا الوسطى عام 2000م، ثم ظهور عدة بؤر وبائية أخرى لها فى أندونيسيا 2004م، وسنغافورة عام 2005م، والهند 2006م، وكمبوديا 2008م، وكوينزلاند باستراليا عام 2009م، ثم فى باكستان عام 2011م.

ومنذ بدايات القرن العشرين وحتى اليوم حدثت عدة موجات وبائية كان أشهرها:

1 – **وباء الكوليرا السادس** (1899: 1923م):

حصد الوباء أعداداً كبيرة من الأرواح، أكثرها فى روسيا (نصف مليون متوفى فى ربع قرن)، وفى مناطق شتى من الدولة العثمانية وفى مكة (20 ألف حاج)، وفى الهند (أكثر من 800 ألف حالة وفاة) ثم فى نيويورك بأمريكا.

2 – **طاعون سان فرانسيسكو** (1900: 1904م) – **طاعون منشوريا** (1910م):

طاعون سان فرانسيسكو كان الموجة الثالثة من جائحة الطاعون الدبلى الحادث خلال القرن التاسع عشر. بينما كان طاعون منشوريا بالصين هو موجة أولى تسببت فى قتل نحو 60 ألف شخص. أعقبتها موجة أخرى من الوباء عام 1946م.

3 – **الأنفلونزا الأسبانية** (1918: 1920م):

هى جائحة أنفلونزا انتشرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وقُدِّر عدد المصابين بها فى العالم بحوالى 500 مليون شخص، كما قدر عدد الوفيات جَرّاء الوباء ما بين 50: 100 مليون شخص!

يُعتقَد اليوم أن هذه الجائحة ربما كانت بسبب فيروس الأنفلونزا أ (H1N1)، والذى استهدف الفئات العمرية المتوسطة، على عكس الأوبئة المعتادة التى تستهدف الأطفال وكبار السن وضعيفي المناعة.

أظهرت التحليلات للعينات المأخوذة من هياكل مصابي تلك الجائحة أن الفيروس لم يكن مختلفاً كثيراً عن سلالات الأنفلونزا المعتادة. لكن تردِّى الخدمة الصحية وانتشار أمراض سوء التغذية وتردى خالة النظافة الشخصية والعامة واكتظاظ المستشفيات فى أعقاب الحرب، هو ما أدى لهذا العدد المهول من الضحايا.

4 – **وباء الكوليرا السابع** (1961: 1975م):

بدأ فى أندونيسيا وانتقل منها إلى بنجلاديش والهند ثم الاتحاد السوفيتى.. ووصل إلى الشمال الأفريقى وإيطاليا. وعقب آخر نوبات التفشى بات وباء الكوليرا مرضاً شبه متوطن يصيب مناطق بعينها أثناء النزاعات والحروب وتردِّى الأوضاع الصحية كما حدث مؤخراً فى اليمن.

5 – جائحات الأنفلونزا:

لم تكن الأنفلونزا الأسبانية هى الجائحة الوحيدة بهذا الفيروس وإن كانت الأكثر تدميراً وإهلاكاً. إذ حدث تفشي للأنفلونزا بدأ فى قارة آسيا عام 1958م أدى لوفاة نحو 2 مليون شخص. وتكرر الوباء عام 1968م ليحصد مجدداً روح مليون شخص. ثم فى أمريكا عام 1972م. وخلال القرن الواحد والعشرين حدثت جائحة أنفلونزا الخنازير، ورغم تعميم اللقاح فى مختلف أنحاء العالم، تسبب الوباء فى موت نحو 18 ألف شخص.

6 – إيبولا الغرب الأفريقي(2013م):

ظهر هذا الوباء فى غينيا ثم انتقل إلى ليبيريا وسيراليون، وكاد يتسبب فى انهيار اقتصاديات تلك البلدان الثلاثة بعد أن أودى بحياة نحو 6 آلاف مصاب. وظهر الوباء مجدداً عام 2018م فى الكونغو وأسقط نحو 2500 قتيلاً.

والإيبولا (EHF:Ebola Haemorragic Fever) أحد أخطر أنواع الفيروسات النزفية. ويُعتقد أن العائل المضيف له هو خفاش الفاكهة، وأنه ينتقل عبر سوائل الجسم كالدم أو حليب الثدى أو المنى. ويتسبب الفيروس فى إحداث قئ وإسهال والتهاب بالمفاصل وملتحمة العين، وينتهى المرض بحدوث حالة من النزيف ثم الهبوط الدموى والوفاة.

ولعل طبيعة انتقال المرض، وقلة انتشار عائله الوسيط: «خفاش الفاكهة» أدى إلى محدودية تفشى الوباء ليصير أقرب للأمراض المتوطنة منه إلى الجائحة.

7 – الإيدز (1976: 1981م):

بدأ ظهور مرض الإيدز فى كينشاسا بالكونغو وانتشر فى مختلف أنحاء العالم. وقد بلغ عدد المصابين منذ بدء انتشار الوباء حتى اليوم نحو 36 مليون مصاب.

والإيدز أو متلازمة نقص المناعة المكتسبة (AIDS: Aquired Immunity Deficiency syndrome) هو مرض فيروسي ناتج عن الإصابة بفيروس(Human Immunodeficiency)– (HIV Virus) والذى يؤدى لتقليل فاعلية الجهاز المناعى للإنسان بحيث يترك المصابين به عُرضة للإصابة بأنواع العدوى والأورام، بحيث تصير الإصابة بأضعف الجراثيم ذات تأثير مدمر للجسم. والفيروس ينتقل عبر سوائل الجسم كالدم والمنى والسائل المهبلى ولبن الرضاعة. وقد تسببت جائحة الوباء العالمى فى موت أكثر من 2 مليون شخص، منهم حوالى 350 ألف طفل.

ولا يوجد حتى اليوم لقاح للإيدز رغم تواصل الأبحاث، والعلاجات الحالية له تعمل على تقليل معدل الوفيات وإبطاء تأثير الفيروس والحد من انتشار العدوى وهى أدوية باهظة الثمن. لهذا تعد الوقاية من الوباء هى الوسيلة المثلى لمكافحة انتشاره.

8 – كورونا (2003) – (2012)

قبل وباء 2020، حدث انتشار لوباء كورونا أولاً فى عام 2003م وأصاب نحو 8000 شخصاً، توفى منهم نحو ألف أو أقل. وتكرر المرض فى أبريل عام 2012م، وتكرر فى مايو 2013م وتسبب فى إصابة حوالى 35 ألف شخص فى ستة بلدان هى الأردن وقطر والسعودية والإمارات وفرنسا وبريطانيا، وقد توفى جراء الوباء نحو 20 شخصاً منهم 18 متوفى فى السعودية.

خصائص الأوبئة فى العصر الحديث

الحروب والنزاعات والتوسعات الاستعمارية ظلت بطلاً رئيسياً فى كل قصة وباء كبري قديماً وحديثاً. وقد ظهر عامل جديد من عوامل تفشى الأوبئة بخلاف الهجرة والجهل والفقر وقلة النظافة، وهى أشياء يُتهم فيها الاستعمار بكافة أشكاله، إلا أن القرن العشرين خاصةً فى نصفه الثانى تميز بالانحلال الأخلاقى والذى تسبب فى ظهور أوبئة تتصل مباشرةً بالسلوكيات الخاطئة للبشر، وخاصةً السلوك الجنسي. وفى حين تراجع تأثير الأوبئة القديمة بسبب التقدم العلمى، ظهرت أوبئة أخرى مستحدثة، السبب المباشر لها سلوكيات البشر وأخطاؤهم الجسيمة.

الأوبئة فى مصر قديماً وحديثاً

كَسِواها من بلدان العالم تعرّضت مصر للأوبئة والأمراض المتوطنة والخطيرة على مدار تاريخها. وقد رأينا كيف أن الاستعمار والحروب، وما يؤديان إليه من جهل وفقر وتدهور فى الأوضاع الاقتصادية والصحية، يتسببان فى ظهور الأمراض وتفشى الأوبئة بسبب إهمالهم للأوضاع الصحية للناس وعدم اكتراث المستعمِر بالحالة الصحية للدولة المحتلَّة بطبيعة الحال. فكم مرة تعرضت مصر للاحتلال والاستعمار؟

وكجزء من العالم، عانَى المصريون من الرعب والفزع لسماع الأخبار التى كانت تَرِد لهم عن أوبئة العالم، وقد تصل الأخبار متأخرة أو لا تصل، فتكون النتيجة الإصابة المفاجئة بالوباء القادم من الخارج. وبسبب حركة السفن على ساحل المتوسط حدثت نوبات من الأوبئة، كالطاعون الذى قضى على ثلث سكان الإسكندرية قديماً.

إن علماء الوبائيات يتحدثون الآن عما يُدعَى «التاريخ الاجتماعى للأوبئة – Social History of Pathogens»، ويعودون بتاريخ الفيروسات إلى نحو 12 ألف سنة مضت! وأن الحصبة والجدرى من

أقدم الفيروسات التى أصابت الإنسان. وهم يتحدثون عن أن المجتمع الزراعى الأول، كما هو الحال فى مصر القديمة، كان سبباً فى سرعة انتشار الفيروسات والأوبئة؛ حيث شجعت الزراعة على إقامة مجتمعات ذات كثافة سكانية عالية، وأن تربية الماشية المرتبطة بعمليات الزراعة أدت لظهور الجراثيم التى تنتقل للإنسان من الحيوانات. وفوق هذا وذاك، ما كان يحدث فى مصر عقب نوبات فيضان النيل، وما يتسبب فيه الطمى الفيضى وركود المياه فى المستنقات المتكونة من انتشار الحشرات الناقلة للأوبئة وبخاصة البعوض.

أوبئة مصر القديمة

فى أحدث ظهور للعالم الأثري ووزير الآثار الأسبق زاهى حواس، أكد أن مصر تعرضت فى عهد الفراعنة إلى عدد من الأوبئة والمجاعات، كالمجاعة التى امتدت لمدة 7 سنوات فى عصر الملك زوسر صاحب الهرم المدرج، وأن تحليل الـ DNA للملك توت عنخ آمون أثبت موته بمرض الملاريا المتوطن فى مصر آنذاك!

ويرجِّح بعض المؤرخين حدوث وباء طويل استمر لنحو مائة عام خلال فترة حكم الهكسوس لمصر، وتحديداً خلال الفترة من (1650: 1550 ق م)، وتسبب فى موت الآلاف، وأنه قد يكون بسبب تفشى الأنفلونزا، والتى كانت تُعرف لدى المصرى القديم باسم «خنث»، وأن العلاج الذى استخدمه المصرى القديم،

بالإضافة للتمائم كتميمة «عين وادجيت»، هو خلطة مكونة من العسل وكبريتيت الرصاص تُدهَن بالأنف لأربعة أيام. كما جاء فى بردية «إيبرس».

وكان للمصرى القديم إله للشفاء والتعافى يُدعَى «سخمت» وهو ذاته إله المرض عندهم. ومبررهم فى تلك الفكرة تجنب شر المرض بتقديم القرابين. وقد ابتكر الكاهن المصرى القديم شخصية «سخمت» الأسطورية المكونة من جسد امرأة ورأس أنثى الأسد، وزوجها «بتاح»، وابنها «نفرتم». وكان لهؤلاء الكهنة دور فى تحجيم وباء الطاعون الذى اجتاح البلاد فى عهد «سنوسرت الأول» من الأسرة 12.

وقد وُجدت أدلة على ظهور أوبئة وأمـراض متوطنة أخرى خلال حقبة الفراعنة التى شهدت عصوراً متباينة من الازدهار والاضمحلال. ومن بين تلك الأمراض الخطيرة مرض السل، والملاريا، والبلهارسيا، وشلل الأطفال. فقد أظهرت إحدى الجداريات الفرعونية وزيراً مصاباً فى إحدى ساقيه بشلل الأطفال. وقد نشر العالم الإنجليزى أرموند روفر فى المجلة الطبية البريطانية نتائج بحثه عن المومياوات المصرية التى يعود تاريخها إلى 1200 عام قبل الميلاد، أنها كانت مصابة بمرض البلهارسيا، ووفقاً لبردية «إيبرس» أطلق المصريون على البلهارسيا اسم «عاع». وعالجوا مرضاهم باستخدام أملاح الأنتيمون أو الطرطير المُقئ.

وفى كتاب «قصة المرض والميكروب» أكد الباحث محمد جوهر أن العلماء وجدوا آثار لمرض السل فى العمود الفقرى للعديد من المومياوات المصرية التى يرجع بعضها إلى نحو 4 آلاف عام قبل الميلاد!

وقد ذكرت شبكة «فوكس نيوز» الإخبارية الأمريكية أن فريقاً من علماء الآثار الإيطاليين اكتشف بقايا وباء فى مومياوات مصرية مغطاة بطبقة سميكة من الجير وبعض هذه المومياوات تم حرقها كما يحدث مع ضحايا الطاعون.وقد تزامن وباء الطاعون فى مصر وقتها مع جائحة «الطاعون القبرصي» (251: 270م).

الوباء والمجاعة فى الشدة المستنصرية (1065: 1071م)

بسبب نقص منسوب مياه النيل تعرضت مصر للجفاف والمجاعة لسبع سنوات اشتهرت باسم الشدة المستنصرية أو الشدة العظمى. وقد ذكر المؤرخون، كابن إياس والمقريزى وابن تغرى بردى وابن اللباد، طرفاً مما أصاب الناس خلالها..

وكان مما ذكروا: أن الجوع اشتد بالناس فأكلوا الجيفة، وبيعت البيضة بعشرة قراريط، وبيع رغيف الخبز بقدر ما يباع به الذهب. وأكل الناس القطط والكلاب، فكان الكلب يباع بخمسة دنانير ليؤكل! ولم يعد يُرى فى الأسواق أحد، ولم تجد الأرض من يزرعها، وانتشرت الأوبئة والأمراض، ومات الناس جراء الجوع والمرض،

فتناقص عدد سكان مصر إلى النصف. وباع الخليفة المستنصر ممتلكاته، ونزحت أمه وبناته إلى بغداد. ومن الحوادث العجيبة أن بغلة وزير الخليفة الذى انتقل للتحقيق فى حادثةٍ ما، ذبحها الناس وأكلوا لحمها! وجاع الخليفة نفسه حتى إنه باع ما على مقابر آبائه من رخام وتصدقت عليه ابنة أحد علماء زمانه.

وذكر ابن إياس أن الناس بعد أن أكلت الميتة والجيفة.. أخذوا فى أكل الأحياء وصُنعت الخطاطيف والكلاليب لاصطياد المارة بالشوارع من فوق الأسطح!

وقد نَشرت مجلة «تايم الأمريكية» عام 1947 تحقيقاً صحفياً جاء فيه أن أول مظاهرة نسائية فى العالم قامت بها سيدات مصريات، حدث فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر بالله حين جفت مياه النيل، وأن قائدة المظاهرة كانت أرملة الأمير جعفر بن هشام، كما ذكر المقريزى فى بعض كتبه.

الغريب أن المستنصر لم يكن من الحكام الطغاة الظالمين، بل كان عادلاً محبوباً من رعيته، وقد عاشت مصر فى بداية عهد المستنصر فى رخاء شديد، وكانت أبواب القصر مفتوحة للعامة. والأدوية الموجودة داخل القصر كانت توزع على العامة بالمجان. وقد توفى المستنصر (1036: 1094م) بعد أن دامت فترة خلافته لفترة طويلة تعدَّت النصف قرن!

الموت الكبير (1347: 1349م):

فى خضم ما عُرف فى العالم باسم «الموت الأسود» الذى بدأ فى العالم عام 1338م، انتقل الطاعون لمصر عبر حركة السفن وتسبب فى قتل 900 ألف مصاب.

وعاد الطاعون لمصر خلال فترات مختلفة فى أعوام 1609م، وعام 1791م، وفى عام 1800م أثناء وجود الحملة الفرنسية فى مصر. وحينها قَتل نابليون عدداً كبيراً من الأسرى وترك الجثث تتحلل فى الشوارع فأصيب جنود نابليون بالوباء وتوفى حينها نحو 75 ألف شخص فى القاهرة وحدها، ونحو 125 ألفاً فى غيرها من محافظات مصر لتبلغ حصيلة الضحايا 200 ألف مُتوفَّى.

موجات من وباء الكوليرا:

خلال قرن كامل أو أكثر منذ 1831م وحتى عام 1947م ظهرت نوبات عديدة من وباء الكوليرا، كجزء من جائحة عالمية أودت بحياة الملايين من البشر كما أسلفت.

كانت الجائحة الأولى عام 1831م هى الأشد قسوة؛ حيث أسقطت نحو 150 ألفاً من الضحايا. وعاود الوباء هجومه عام 1895م فى محافظة دمياط، إلا أن الإجراءات المتبعة وقتها حالت دون تفشى الوباء فى باقى المحافظات.

وعاد المرض ليظهر فى محافظة الشرقية عام 1947م وأصاب نحو 20 ألفاً، مات نصفهم. وانتهت نوبة الوباء خلال شهر ونصف.

ملاريا الجنوب (1942: 1945م):

فى شهر مارس من عام 1942م حدث اجتياح لبعوض الملاريا لمناطق من جنوب مصر قادماً من النوبة وشمال السودان، وتغلغل شمالاً إلى الأقصر حتى وصل إلى أسيوط. وعلى مدار 3 سنوات أصاب المرض نحو 750 ألف شخص توفى ثلثهم قبل أن تنحسر موجة المرض، ويتحول إلى مرض متوطن داخل قرى محدودة.

الأنفلونزا (2006م) – (2014م):

ظهر مرض أنفلونزا الطيور كوباء عالمى عام 2006م، واستمر فى مصر وغيرها من البلدان فى شكل موجات تزيد وتنحسر حتى عام 2013، وأسقَط فى مصر نحو 60 حالة من إجمالى 170 مصاب.

وفى عام 2014م حدثت موجة أخرى من أنفلونزا الخنازير (H1N1) أعدمت الدولة على إثرها قرابة 300 ألف خنزير على إثر إصابة 200 شخصاً بالمرض.

الفصل
الثاني

اعرف عدوك

(.. يري عالم الفلك البريطانى مارتن ريس أن أهم الأخطار التى تهدد البشرية هى «إرهاب نووى، وفيروسات مميتة معدلة وراثياً وانفلات أجهزة من صنع الإنسان، وهندسة وراثية تغير طبيعة البشر.. كل هذا يتم بتدبير من «أشرار» أو بنتيجة خطأ بشري، غير أن العام 2020 سيكون عام الخطأ البيولوجى الذى

يتسبب بمقتل مليون إنسان!!!!)

هشام طلب

من كتاب «بناء الكون ومصير الإنسان»

– ط أ (2006م)!

الوبائيات.. مصطلحات ومفاهيم

فى خضم المعلومات والأخبار الكثيرة المتدفقة عن مرض كورونا وغيره من الأوبئة على مدار الساعة، وهو الأمر الذى يفرض نفسه هذه الأيام، تغيب بعض الحقائق وتختلط المفاهيم والمعانى ويصير من الضرورى تفنيد وتفكيك تلك المفاهيم من أجل التمييز بين المعانى والمفردات المختلطة والمتشابكة.

علم الأوبئة.. ما هو؟

علم دراسة الوبائيات «Epidemiology» هو علم يهتم بدراسة الحالات الجَماعية للعدوى «الأمراض المعدية التى تصيب عدداً كبيراً من البشر» فى الحاضر أو الماضى، لفهم الخصائص البيولوجية المتعلقة بانتشار المرض، والعوامل التى تسببت فى انتشاره. واللفظ «Epidemiology» اليونانى مكون من 3 مقاطع: «epi» بمعنى على أو بين، «demos» أى الناس، و «logos» أى دراسة.

فهو علم يهتم بالعنصر البشرى فى الجائحة..ودراسة هذا العلم مثَّلت حجر الأساس لنشأة الطب الوقائى المختص بمنع انتشار العدوى فى المجتمعات. ويصف علم الوبائيات الطرق المختلفة التى تحدث بها العدوى من العوائل الناقلة للمرض، مثل:

1 – الاتصال المباشر «Direct Contact»: كما فى الأمراض الجلدية كالجرب، أو الأمراض الجنسية كالزهرى والسيلان.

2 – بالهواء «Airborn»: أى من خلال الرذاذ المتطاير كما فى الأنفلونزا.

3 – بالطعام «Foodborn»: بتناول الطعام أو الشراب الملوثين كالكوليرا.

4 – بالحشرات «Insectborn»: أى عن طريق العوائل الحاملة للمرض كالبراغيث الناقلة للطاعون الدملى، والبعوض الناقل للملاريا.

5 – اختراق الجلد: كما فى البلهارسيا.

6 – المشيمة والدم: أثناء الحمل أو الولادة أو نقل الدم كما فى الإيدز والحمى الصفراء والالتهاب الكبدى الوبائى «B.C».

ويميز علم الوبائيات بين الطرق والمناهج المختلفة لدراسة الأوبئة والمنبثقة من الأهداف المراد تحقيقها من خلال منهج الدراسة..هكذا انقسمت الوبائيات لأنواع..

فهناك علم الأوبئة الوصفى «Descriptive Epidemiology» حيث تكون ملاحظة المرض عن قرب للحالات المصابة بالمرض خلال نوبات انتشاره. أو علم الأوبئة الظرفى أو الوقتى «Oppor-tunity type» لدراسة نمط تكرار المرض ومدى انتشاره ونوعية

المصابين، ويتتبع المرض إلى مصدره الأصلى للوصول إلى الحالة رقم 1 التى نقلت المرض. ثم علم الأوبئة الاسترجاعى أو التاريخى «Retrospective» وفيه تتم الاستعانة بكل المصادر المتاحة عن الوباء مثل كتب التاريخ وتقارير الرحالة ومذكرات الأدباء والمؤلفين المعاصرين لتلك الفترة، كما تصير الحفريات والآثار وكتب الدين مصادر محتملة للباحثين. ثم علم الأوبئة المستقبلى أو القائم على التوقع والتنبؤ «Prospective» وفيه توضع الفروض للربط بين المرض وعوامل محتملة لحدوثه، من أجل التوصل لشبكة العلاقات الكاملة للمرض.

وقد نشأ من هذه الأنواع أو المناهج البحثية فى علم الوبائيات علوم أخرى تطبيقية شديدة الأهمية.. كعلم «التاريخ الاجتماعى للوباء» المشار إليه سلفاً، والمختص بالتأثيرات الاجتماعية للأمراض الوبائية على مر التاريخ البشري. وهناك «علم الأوبئة الاقتصادى» Economic Epidemiology» والخاص بالسلوكيات الاقتصادية المرافقة لأحداث انتشار الوباء؛ كحجم الإنفاق والإنتاج والبيع والشراء وأنماط الاستهلاك. ولعل من أهم وأحدث أنواع علوم الوبائيات التطبيقية والذى قد يتقاطع فى بعض منحنياته مع الأغراض العسكرية هو علم الأوبئة الجزيئي «إيميتاف – IMETAF» أو «International Molecular Task Force» واللفظ يعبر عن

فريق عمل دولى نشأ عام 1993م، تزامناً مع صدور أول كتاب بعنوان: «علم الأوبئة الجزيئي المبادئ والتطبيق» للعالمين شولت وبريرا والذى ركز على ما يُدعَى المؤشر الحيوي «biomarker» للاستعانة به فى أبحاث الوبائيات، إنه علم يصب اهتمامه لا بالإنسان بل بالجرثومة وتركيبها الجيني.

الانتشار السريع للأوبئة.. كيف ولماذا يحدث؟

هذا تساؤل مهم يمثل مَبحثاً جوهرياً من مباحث علم الأوبئة..

وترتبط إجابة هذا السؤال بطبيعة العدوَى لدى الجرثومة المسئولة عن الوباء..

ويميز علم الأوبئة بين نمطين من العدوى.. العدوى السريعة، والبطيئة أو التدريجية.

«Slow mode – Rapid mode».. ووباء كورونا ينتمى لنمط العدوَى السريعة. والفيروسات التى تنتمى لهذا النوع فيروسات هشة «Delicate Pathogens» لا تستطيع العيش فى أشعة الشمس أو تتحمل الجفاف أو المواد الكيماوية؛ لذلك فهى تبحث بسرعة عن عائل تحيا داخله وتتكاثر وتنتشر.

بينما فى النمط الثانى البطئ من العدوَى الوبائية تظهر الأعراض ببطء وبالتدريج وقد يظل العائل سليماً بلا أعراض لسنوات قبل أن يفتك المرض بالجسم، كما يحدث فى مرض الإيدز أو الدرن. وهناك

أنواع من الجراثيم قادرة على اتخاذ شكل دفاعى من أشكال الحياة هو الطور المتحوصل «spore form» حيث يتخذ الميكروب لنفسه درعاً سميكاً مقاوماً للحرارة والشمس وقد يظل الميكروب على تلك الحالة لسنوات حتى يجد عائلاً يسكنه، ومن أمثلة الميكروبات المتحوصلة: الدوسنتاريا الأميبية، والأنثراكس «الحمى الفحمية».

غير أن هناك عوامل كثيرة أخرى تتحكم فى سرعة انتشار الوباء بعضها بيئى كحالة الطقس وسرعة الرياح والرطوبة والنظافة العامة. وبعضها الآخر بَشرى يتعلق إما بسلوكيات الناس وتحركاتهم وانتقالهم من مكان لمكان أو من بلد لبلد. أو يتعلق بالسمات الذاتية للمجتمعات كالسمات العرقية أو الإثنية أو الفئة العمرية أو الحالة الاجتماعية، وغيرها من العوامل.

دلالات المفاهيم والمصطلحات

هناك اختلاف بين ألفاظ: «الوباء، والجائحة، والمرض المتوطن».. فالوباء «Epidemic Disease» يعنى الانتشار السريع والمفاجئ لمرض مُعدى فى بقعة جغرافية ما فوق المعدلات المعتادة. وهذا الانتشار إذا اتسع نطاقه يتحول إلى ما يُعرف بالجائحة: «Pandemic Disease» حيث يتجاوز المرض الحدود، ويخترق نطاق الحجر الصحى المفروض ويتحول لوباء عالمى الانتشار. بينما إذا تحول المرض إلى شكل نوبات زمنية متقطعة

تصيب منطقة جغرافية محدودة بعينها، فيسمى بالمرض المتوطن «Endemic Disease».

حقيقة كورونا

يرجح علماء الوبائيات أن عمر فيروس كورونا على الأرض يبلغ نحو 8000 عام!

وأن الأنواع الأحدث من فيروسات كورونا يمتد عمرها لما بين 2400: 3000عاماً. وهى أنواع منتشرة بين الخفافيش والطيور.

ظهر فيروس كورونا البقرى والكلبي التنفسي عام 1951م.. ويعود ظهور فيروس كورونا البشري OC43 و 229E إلى ستينيات القرن العشرين، بينما تعاقَب ظهور الأنواع الأحدث من الفيروس خلال مطلع القرن الواحد والعشرين: كورونا سارس 2003م، وكورونا NL63 سنة 2004م، وكورونا HKU1 سنة 2005، وكورونا ميرس سنة 2012م، ثم فيروس كورونا المستجد عام 2019م.

ما هو فيروس كورونا؟

ينقسم فيروس كورونا إلى 4 أصناف رئيسية «ألفا – بيتا – جاما – دلتا» والتى يتفرع منها نحو 30 نوعاً فرعياً من أنواع الفيروس التى تصيب طائفة من الثدييات والطيور. أما عن فيروس كورونا البشرى فهو يتفرع لسبعة أنواع رئيسية هى:

1 – كورونا (229E Hcov – 229E).

2 – كورونا (OC43 Hcov – OC43).

3 – فيروس كورونا المرتبط بمتلازمة سارس (SARS – Cov).

4 – كورونا NL63.

5 – كورونا HKU1.

6 – فيروس كورونا المرتبط بمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية (MERS – Cov)، وعرف سابقاً باسم فيروس كورونا الجديد (Hcov – EMC).

7 – فيروس كورونا المستجد (nCov – 2019)، ويُعرف بكورونا ووهان. وهو من الفئة بيتا من فئات كورونا الأربع.

ولفظ كورونا فى اللاتينية (Corona) معناه الهالة أو التاج أو إكليل الزهور، والتسمية تشير إلى المنظر المميز للفيريونات المجهرية الموزعة على سطح الفيروس والتى تظهر تحت المجهر الإليكترونى كهالة الشمس أو الإكليل المستدير. ولهذا يُعرف الفيروس بأسماء أخرى أقل شهرة كالفيروس التاجى أو الحمى الإكليلية.

يرتبط فيروس كورونا(nCov – 19) «اختصار newCoronaVi-rus – 2019»، بما يُدعَى متلازمة سارس «SARS=Serious Acute Respiratory Syndrome» أى المتلازمة التنفسية الحادة الوخيمة.

وعقب فك شفرة الجينوم الخاص بشريط RNA للفيروس والمحتوِى على 30 ألف متسلسلة نيوكليوتيد، توصل العلماء إلى أن الفيروس المستجَد يتطابق بنسبة 96٪ مع كورونا الخفافيش إلا فى تسلسل أمينى ينتمى لحيوان «آكل النمل الحرشفى»، ما يعنى أنه فيروس كورونا خفافيش متحور تحوراً تلقائياً أو معالَج وراثياً، وأن العائل الوسيط للفيروس هو آكل النمل.

خصائص وأعراض (Cov – 19):

تتمثل الطريقة الرئيسية لانتقال فيروس كورونا من إنسان لإنسان عبر الهواء، من خلال الإفرازات الخارجة بالزفير(السعال والعطس) من شخص مصاب بالمرض. كما قد ينتقل الفيروس من لمس أشياء ملوثة بمثل هذه الإفرازات كالأسطح والأشياء المحيطة بشخص مصاب.

وتتراوح فترة الحضانة من بضع ساعات إلى 14 يوماً (الغالب 4 أيام). وقد سُجلت حالة واحدة بلغت فترة حضانة المرض بها 27 يوماً.

والشخص المصاب بالوباء قد يحمل الفيروس دون أن تبدو عليه أعراض الإصابة، أو قد تظهر عليه أعراضاً متفاوتة الحدة والشكل. وقد أوضحت منظمة الصحة العالمية من خلال استقراء نحو 56 ألف حالة مصابة بأن أهم الأعراض والعلامات المسجلة هى: ارتفاع الحرارة(88٪) – السعال الجاف(88٪) – الإنهاك المرضى(40٪) – التعرق(35٪) – ضيق التنفس(20٪) – القئ

والغثيان(5٪) - احتقان الأنف(5٪) - الإسهال(4٪) - نفث الدم(1٪) - احتقان ملتحمة العين(1٪). «النسب تم تقريبها لأقرب رقم صحيح».

وقد نشرت منظمة الصحة العالمية عدة بروتوكولات للتشخيص المعملى لفيروس كورونا المستجد، أهمها اختبار (rRT – PCR) من عينات الدم أو البلغم للشخص المشتبه، و تظهر النتائج خلال أيام أو ساعات. ثم إجراء الأشعة المقطعية للرئتين.

مسيرة الوباء

بدأ وباء كورونا رسمياً فى 31 ديسمبر 2019م، ومن هنا جاءت تسمية الفيروس كوفيد 19، عقب بلاغ رسمى من السلطات الصينية لمنظمة الصحة العالمية..

جاء فى البلاغ أن مدينة ووهان سابع أكبر مدينة صينية من حيث تعداد سكانها البالغ 11 مليون نسمة بها تفشي غامض لحالات التهاب رئوى غير معروف السبب، وقد سُجلت أول حالة إصابة فى 8 ديسمبر، وكانت لأحد مالِكى المتاجر فى سوق ووهان للأسماك، لكن تم إغلاق السوق فى مطلع يناير 2020م.

ومنذ تلك اللحظة ووتيرة الوباء تتصاعد أولاً فى الصين ثم فيما حولها، حتى تحول إلى وباء عالمى فى أكثر من 200 بؤرة وبائية.

نوبات الوباء قبل كورونا ووهان

لم تكن نوبة التفشى الأخيرة هى الوحيدة التى حدث فيها انتشار وباء كورونا، بل حدثت عدة نوبات سابقة أهمها:

1 – كورونا سارس (2003م):

ظهر الوباء أولاً فى آسيا ثم انتشر إلى عدة مناطق فى العالم، وأعلنت منظمة الصحة العالمية حينها أن عدد المصابين بالمرض فى العالم ناهز 8000 شخصاً، توفى حوالى 10٪ منهم.

2 – كورونا ميرس (2012م):

فى سبتمبر 2012م تم تحديد نوع جديد من كورونا أطلق عليه (MERS – Cov) أو متلازمة الشرق الأوسط التنفسية «Middle East Respiratory Syndrome». وانتشر المرض منذ مايو 2013م وحتى أكتوبر من نفس العام عبر 6 دول هى: (فرنسا، بريطانيا، السعودية، الأردن، قطر، الإمارات) وأصيب نحو 125 شخصاً، مات منهم أكثر من 50 حالة.

3 – ميرس (2015م):

فى مايو 2015م انتشرت الإصابة بفيروس كورونا ميرس المرتبط بمتلازمة الشرق الأوسط التنفسية فى كوريا الجنوبية، ووصل عدد المصابين إلى نحو 2500 شخصاً، مات منهم 850 بمعدل وفيات 35٪!

وتجدر الإشارة إلى أن هناك دلائل على انتشار كورونا فى أوروبا قبل ووهان الصينية بنحو شهر، أى فى نوفمبر 2019! وفقاً لتقرير لموقع «الحرة» نقلاً عن موقع «ساوث تشاينا مورنينج بوست»..

ويشير التقرير أن ماريو نيجرى مدير معهد البحوث الدوائية فى ميلانو أكد ظهور حالات التهاب رئوى غريبة فى إقليم لومبارديا، ثم فى سكانزو وساسيات بإيطاليا. وهو ما قد يعنى أن الفيروس كان قد بدأ الانتشار مبكراً فى أوروبا. وهو ما قد يفسر ضخامة أعداد الضحايا فى إيطاليا دون غيرها من بلدان أوروبا.

شهران قبل الاجتياح

مر مطلع عام 2020م مروراً مرعباً، والعالم يتابع أخبار ما يحدث فى الصين وما حولها، على مدار شهرَى يناير وفبراير عبر الفضائيات ووكالات الإعلام..

- وخلال النصف الأول من شهر يناير لم يزد عدد حالات الإصابة فى الصين عن 50 حالة، توفى أولها فى 9 يناير. وكانت الإصابات قد بدأت فى الظهور فى خمسة بلدان أخرى هى «تايلاند، واليابان، وكوريا الجنوبية، وأمريكا،وتايوان».لكن ظل الوضع تحت السيطرة حتى 22 يناير، حيث أكدت الاختبارات المعملية إصابة 540 حالة، وجاءت الأخبار بوفاة 17 حالة.

- اتخذت السلطات الصينية قراراً فى اليوم التالى بإغلاق مدينة ووهان ووضعها تحت شروط الحجر الصحى. وبدأت أعداد المصابين فى الازدياد حتى وصلت إلى 4000 حالة يوم 27 يناير، والوفيات أكثر من 100 حالة. كما تأكد ظهور حالات مصابة فى 5 بلدان أخرى حول العالم.
- فى أول فبراير توفيت أول حالة خارج الصين، وكانت فى الفلبين. وكان إجمالى عدد الإصابات قد وصل إلى نحو 17 ألف حالة، و400 حالة وفاة.
- مع نهاية شهر فبراير كان عدد الإصابات فى الصين والعالم قد تعدى 85 ألف حالة، والوفيات أكثر من 3 آلاف حالة. واستفحل الوباء فى أكثر من 10 دول،أهمها إيران التى سجلت أكثر من 2000 حالة. كما ظهرت إصابات متفرقة فى مختلف البلدان. وكانت أغلب بلدان العالم قد اتخذت إجراءات احترازية متفاوتة للحد من فرص وصول العدوى إليها.

مارس والاجتياح الكبير

شهد النصف الأول من شهر مارس تراجعاً فى أرقام الوفيات والإصابات بالصين التى بدأ منها الوباء. بينما بدأت بؤرة ثانية جديدة فى الظهور فى مناطق مختلفة من أوروبا وبخاصة إيطاليا التى شهدت أعنف موجات الوباء.

وخلال النصف الثانى من شهر مارس وخلال أسبوعين فقط تقافزت الأرقام فى جميع أنحاء العالم، بينما توقفت أرقام الوباء فى الصين التى تراجع ترتيبها فى بيانات الإصابة والوفيات بين البلدان إلى المرتبة السادسة.

وبدا أن وتيرة الإصابات تتفاوت من بلد لبلد، ففيما تزايدت أعداد الإصابات بمتوالية حسابية فى بعض الدول، تزايدت فى أمريكا وإيطاليا وأسبانيا بمتوالية هندسية مفزعة.

رحلة كورونا فى مصر

أكثر من مائة يوم مرت على مصر منذ تم الإبلاغ عن أول حالة إصابة فى البلاد لمواطن صينى فى 14 فبراير 2020.

وحتى يوم 5 مارس لم تظهر إلا 3 حالات إصابة لأجانب قبل أن يتم الإعلان عن أول مصاب مصري فى هذا اليوم وكان أحد العائدين من دولة أوروبية. وبعدها بثلاثة أيام تم الإبلاغ عن أول حالة وفاة لمواطن ألمانى ستينى بالغردقة. وخلال أيام معدودة تضاعف عدد الحالات إلى نحو 80 إصابة، وعلى إثر هذا التنامى فى أعداد المصابين قرر وزير الطيران إغلاق المطارات وإيقاف جميع الرحلات فى منتصف مارس.

ونتيجة لتفاقم الأوضاع عالمياً وظهور عدد من الحالات فى مختلف المحافظات المصرية آنذاك كدمياط والمنيا والدقهلية،

أعلنت رئاسة الوزراء وقف العروض فى دور السينما والمسارح مع تعليق الدراسة فى المدارس والجامعات كإجراء احترازى، كما تقرر وقف تصدير المستلزمات الطبية.

ولدى عودة المعتمرين المصريين بدأ ظهور حالات إصابة فى محافظات الصعيد ليرتفع عدد الحالات فى 20 مارس إلى (285)حالة إصابة و8 وفيات. وفى 21 مارس صدر القرار من وزارة الأوقاف بتعليق الصلاة بجميع المساجد مع تعديل صيغة الأذان بإضافة عبارة: «ألا صلوا فى بيوتكم»، كما أعلنت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية غلق جميع الكنائس وإيقاف القداسات والخدمات الطقسية.

ومع الإعلان عن أول حالتى وفاة فى صفوف الجيش المصرى فى 23 مارس، أصدر رئيس الوزراء مصطفى مدبولى فى 24 مارس عدة قرارات هامة كحظر حركة المواطنين، وإيقاف وسائل النقل فى فترات الحظر، وغلق المحلات التجارية وتعليق الخدمات فى الشهر العقارى والمرور مع مد تعليق الدراسة وحركة الطيران، وتحديد فئات مستثناة من الحظر كالأطباء والصحفيين والإعلاميين.

ومع نهاية شهر مارس كان عدد حالات الإصابة قد وصل إلى (710) والوفيات إلى (46) مع شفاء نحو مائتى حالة. وانتشر الوباء فى أغلب محافظات مصر..

وخلال شهر أبريل تسارعت وتيرة الإصابات، من ناحية بسبب عودة بعض المصريين من الخارج بينهم مصابين، ومن ناحية أخرى بسبب عدم التزام بعض الأفراد بالإجراءات الوقائية، ومن جهة ثالثة بسبب انتشار الوباء بين الأطقم الطبية كما حدث فى مستشفى معهد الأورام فى 4 أبريل..

هكذا تضاعفت الحالات خلال شهر أبريل من أقل من 800 حالة فى أوائل الشهر إلى نحو 5500 حالة فى نهايته، وارتفعت الوفيات من 50 حالة إلى نحو 400 حالة فى مقتبل مايو.

كان هناك تحذير مسبَق من وزارة الصحة للجمهور بضرورة الالتزام بالتدابير الوقائية حتى لا ترتفع الحالات فوق الألف حالة، حيث يصير التحكم فى الأرقام صعباً بعد كسر الألف الأولى. فكيف وقد تعدت الحالات حاجز الخمسة آلاف حالة؟

هكذا تواصَل ازدياد الحالات خلال شهر رمضان الذى تزامَن مع شهر مايو، وتضاعفت الأرقام خلال شهر مايو بصورة أكبر، حيث كسرت الأرقام حاجز العشرين ألف حالة خلال هذا الشهر، ليصير عدد المصابين فى مطلع يونيو حوالى 25 ألف حالة إصابة، ونحو ألف حالة وفاة، مع ارتفاع حالات الشفاء لأكثر من ستة آلاف حالة.

وقد تلقت مصر من المنظمات العالمية عبارات التحايا والتهانى والثناء للطريقة الاحترافية التى أدارت بها مصر أزمة وباء كوفيد 19، وكان من أبرز ما قامت به الإدارة المصرية بهذا الصدد:

1 – **الإجـراءات الاستباقية**: إذ كانت مصر من أوائل الدول التى سارعت فى اتخاذ التدابير الاحترازية اللازمة لتحجيم الأزمة كغلق الحدود ووقف الطيران والحظر الجزئى لحركة المواطنين وغلق المدارس والجامعات وغيرها من التدابير.

2 – **القرارات الاستثنائية**: على الرغم من الحسم والسرعة فى الأداء الحكومى، تميز هذا الأداء بشئ استثنائى من المرونة الملفتة خروجاً على النمط الروتينى المعتاد؛ ففى ذروة الأزمة رأينا زيارات مكوكية قامت بها وزيرة الصحة هالة زايد إلى الصين وإيطاليا، ورأينا مساعدات مصرية طبية تصل إلى دول أوروبية وأفريقية بل وإلى أمريكا نفسها. ورغم الانتقادات المجحفة آنذاك، فإن هذه الإجراءات عادت على الدولة المصرية بفوائد عظيمة لاحقة، مثل المنحة التى تلقتها مصر من أمريكا تقديراً للمساعدات التى قدمتها لها خلال ذروة الأزمة فى أمريكا.

3 – **تطوير بروتوكولات العلاج**: فى نهاية شهر مايو دعا الرئيس السيسي لتعديل البروتوكولات العلاجية وفقاً لأحدث التطورات العالمية، وتمت الاستجابة للدعوة بتطوير البروتوكول العلاجى، ما أدّى لتسارع أرقام حالات الشفاء.

4 – **تحقيق التوازن الاقتصادى**: رغم تفشى الأزمة الاقتصادية عالمياً جرّاء الوباء، فإن مصر استطاعت عبور الأزمة دون خسائر كبري مؤثرة.

أساليب مكافحة وباء كورونا

منذ اللحظة الأولى حاولت الصين تحجيم الإصابات والسيطرة على انتشار الوباء، ولهذا سارعت بإبلاغ منظمة الصحة العالمية للمشاركة فى هذا الدور..

وعندما بدأ المرض فى الانتشار خارج حدود الصين، صار الهَمّ الأكبر لجميع الدول هو منع دخول الوباء إلى أراضيها أو على الأقل الإسراع فى رصد الوباء واحتوائه قبل انتشاره.. لهذا سارعت كل دولة باتخاذ الإجراءات المناسبة..

تدابير الوقاية العامة

أُولى الدول التى اتخذت تدابير الوقاية كانت هى الدول الواقعة فى حدود الصين أو القريبة منها. وبعض الدول مثل روسيا سارعت فى إغلاق حدودها المتاخمة للصين مبكراً، وكان من أهم التدابير الوقائية التى اتخذتها الدول هى:

1 - **الحجر الصحى:**

فى الأحقاب الماضية كان إهمال تطبيق الحجر الصحى أو تأخر تطبيقه سبباً رئيسياً فى سرعة تفشى الأوبئة، وهو ما كان يتسبب فى

سقوط أعداد هائلة من الضحايا. لهذا كان من الضرورى تطبيق الحجر الصحى سواءً على المستوى الفردى أو العام. حتى أن الصين طبقت الحجر الصحى أولاً على مدينة ووهان بأكملها وعلى سكانها الذين يبلغ تعدادهم 11 مليون نسمة.

الأشخاص المشتبه فى إصابتهم،بسبب مخالطتهم لمصاب معلوم، يتم إخضاعهم للحجر الصحى لمدة 14 يوماً، وقد رفعت بعض الدول مدة الحجر إلى 28 يوماً، بسبب وجود حالة مسجلة وصلت مدة حضانة المرض بها إلى 27 يوماً.

2 – العزل وغلق الحدود:

كانت تلك هى الخطوة الضرورية التالية لإكمال دور الحجر الصحى، وهى عزل الأصحاء عن المصابين. وكان من الصعب تطبيقها، بسبب وجود حالات مصابة ولم تظهر عليها أعراض تسير بحرّية بين الناس، فكيف يمكن عزل مثل هؤلاء الأشخاص عن الآخرين؟

هذا ما حدا بالدول لضرورة إجراء العزل العام، بمنع اختلاط الناس بكميات كبيرة، وتقليل فرص الاجتماع بين أعداد كبيرة من الناس. هكذا اتخذت كل دولة ما رأته مناسباً من إجراءات فى هذا الصدد. وكان أول إجراء فعلته الدول المحيطة بالصين بعد غلق الحدود، هو تعليق الدراسة فى جميع المدارس.

فى مصر حدث نوع من العزل الاستباقى، حيث سارعت الدولة بتطبيق إجراءات منع التجمعات بتعليق الدراسة، وإيقاف الفعاليات الترفيهية بالنوادى والمسارح ودور السينما. وشجعت الناس على البقاء فى البيوت لمنع الاختلاط. كما طبقت فى مرحلة تالية حظراً مسائياً للتجوال.

مثل تلك الإجراءات وتطبيقها المبكر أسهم بشكل فعال فى تحجيم الوباء، حتى أن منظمة الصحى العالمية أشادت بالنموذج المصري فى التعامل مع الأزمة، وقالت أن أمام مصر فرصة ذهبية للقضاء على الوباء نهائياً.

3 – تعليق الرحلات الجوية:

مع تفاقم الأزمة وانتشارها خارج حدود الصين، بدأت شركات الطيران فى إلغاء رحلاتها الجوية من وإلى الصين، أو خفض هذه الرحلات تدريجياً ثم إلغائها.

ومع ظهور عدة بؤر جديدة للوباء. بدأ إلغاء الرحلات يتضمن دولاً أخرى بخلاف الصين، مثل إيران وإيطاليا وأسبانيا وكوريا الجنوبية وأمريكا.

بعض الدول منعت حركة الطيران بشكل كامل، بعد فترة من التعليق الجزئي.

4 – إجلاء المواطنين:

استجابت أكثر الدول لنداء رعاياها القاطنين فى الصين، ومنها مصر، والذين احتجزهم الحظر المفروض عليهم هناك. فتم إرسال رحلات خاصة لإجلاء رعايا الدول ونقلهم إلى بلادهم، ثم تطبيق إجراءات الحجر الصحى عليهم.

5 – بناء المستشفيات:

تعهدت الحكومة الصينية ببناء مستشفى بسعة 1000 سرير فى 10 أيام. وبعد خمسة أيام فقط من هذا التعهد، افتتحت المستشفى المتخصص لعلاج وباء كورونا فى 29 يناير. وهو أمر تكرر فى الصين، حيث قامت بإجراء مماثل عام 2003م، لدى تفشى وباء السارس لديها فقامت ببناء مستشفى خلال نفس المدة!

ورغم تحقق هذا الإنجاز لم تكفِ تلك الإجراءات فى استعياب العدد المتزايد من المصابين، واضطرت الصين لإجراء الاحتجاز بالحجر الصحى فى أماكن أخرى بخلاف المستشفيات. كالفنادق والمبانى السكنية. وبرغم تسارع وتيرة الوباء فى الصين. ساعدت مثل هذه الإجراءات وغيرها فى تحقيق السيطرة على الوباء، وأعلنت الصين فى النصف الثانى من شهر مارس سيطرتها على مرض كورونا، وهو ما ظهر فى تصاعد أعداد حالات الشفاء، وثبات أعداد الإصابات، وتوقف الوفيات أو انحسار أعدادهم.

تدابير وقائية فردية

لتحقيق النجاح فى التدابير العامة التى قامت بها الدول كلٌّ على حدة، كان لابد من المشاركة المجتمعية بالالتزام بالتعليمات والإرشادات الصحية الخاصة بالتعامل مع الأزمة. كان من أهم تلك التعليمات:

1 - المكوث فى المنازل:

رغم أن الإجراء ذاته سهل التطبيق نظرياً. إلا أن تحققه بشكل عملى كان يمثل تحدياً سواءً بالنسبة للحكومات أو بالنسبة للأفراد. خاصةً فى المجتمع المدنى كثيف التعداد والأعمال والمهام.

2 - ارتداء قناع الوجه:

كان من الضرورى تحجيم انتشار الوباء بالهواء الناقل له من خلال الرذاذ المتطاير من سعال المصابين. فكان قناع الوجه، برغم بساطته، حلاً مناسباً لتحقيق مثل هذا الأمر. وكان من الضرورى تعميمه على جميع الناس، مصابين وغير مصابين، من أجل اكتمال الفائدة. إلا أن هذا كان رهناً بسلوكيات الأفراد، أو بتوافر الإمكانيات. فقد اضطرت بعض الدول لاستيراد كميات كبيرة من قناع الوجه ولم تجد أمامها إلا منتجات الصين المحظورة لدى دول أخرى!

3 – **النظافة العامة والفردية:**

الغسيل الدورى للأيدى لمدة 20 ثانية كل مرة بالماء والصابون. وتجنب ملامسة الحيوانات الأليفة، وعدم مشاركة الأشياء الشخصية كالمناشف والأكواب والملاعق والأطباق، خاصةً عند الاشتباه فى الإصابة.. كلها إجراءات فردية بسيطة تسهم فى تحجيم انتشار العدوى أو الإصابة بها. يضاف لها التنظيف الدورى لمكان الإقامة، وإزالة الملوثات والقمامة بشكل صحى.

4 – **تناول الأطعمة المقوية للجهاز المناعى:**

حثت وزارة الصحة ومنظمات الصحة العالمية على الإكثار من تناول الأغذية المقوية للجهاز المناعى، بسبب أهميتها فى مقاومة فيروس كورونا. وذكرت أن أهم العناصر المطلوب توافرها فى الغذاء، إلى جانب الغذاء المتوازن، هى:

- **فيتامين أ:** والذى يحافظ على التركيب البنائى لخلايا الجلد والجهاز التنفسي ويشكل خط الدفاع الأول للجسم خاصةً وأنه يساعد فى صنع الأجسام المضادة. ومن أهم مصادره الغذائية: (التونة، صفار البيض، الكبدة، القرع، البطاطا).
- **فيتامين ب:** تساهم مجموعة فيتامينات ب خاصةً ب «6،9،12» فى التعرف على العامل الممرض لمقاومته. ومن مصادرها الغذائية: (البقوليات، المكسرات، الفواكه، الأسماك، اللحوم، منتجات الألبان، البيض).

- **فيتامين ج – فيتامين هـ**: يساعدان على محاربة العدوى من خلال تقليل الإجهاد التأكسدى «Oxidative Stress» وحماية الخلايا منه. ويوجد فيتامين ه فى المكسرات والخضروات الورقية، كما يكثر فيتامين ج فى كل من: (الحمضيات كالبرتقال واليوسفى والليمون، والجوافة، والكيوي، والطماطم، والفلفل).
- **فيتامين د**: تحتاجه الخلايا المناعية للمساعدة فى تدمير مسببات المرض. وهو موجود فى البيض والسمك، كما أن التعرض لأشعة شمس الظهيرة المباشر يساعد فى تنشيط الفيتامين المنتشر تحت الجلد.
- **المعادن وأهمها (الزنك – الحديد – السيلينيوم)**: وكلهم لهم دور فى تعزيز الخلايا المناعية. ويكثر الحديد فى اللحوم والدواجن والأسماك والبقوليات. كما يكثر الزنك فى المكسرات والقشريات البحرية، والسيلينيوم فى اللحوم والحبوب وفطر عيش الغراب.

العلاجات التجريبية واللقاحات

ما زالت الجهود العالمية مستمرة للتوصل إلى علاج أو لقاح فعال لوباء كوفيد19.

كورونا فى خرائط الموت

بالمقارنة مع غيره من أوبئة العالم فى التاريخ، لم يكن كورونا هو الأسوأ..

حتى بالمقارنة مع غيره من مسببات الموت المعاصرة، لم يكن الأشد وبالاً..

بعض الأوبئة القديمة التاريخية أبادت حضارات وشعوباً بأكملها. كما أن بعض أوبئة ومصائب العصر الحديث أحدثت أعداداً من القتلَى والضحايا يفوق وباء كورونا عشرات المرات؛ كضحايا التدخين والإيدز والحوادث المرورية والحروب والنزاعات.

يُعتبر التدخين هو القاتل رقم واحد فى العالم بما يسببه من أمراض القلب والجهاز التنفسي والسرطان. وفى حروب الشرق الأوسط الأخيرة مات الملايين من البشر دون أن يطرف للعالم المتقدم رمش، أو يكترث للضحايا مجتمع دولى أو منظمة عالمية!

وحتى وقت قريب، وقبل أن يتفاقم الوباء فى أوروبا وأمريكا، كانت نسبة الوفيات لا تتعدى 4٪ من المصابين. وحتى بعد أن زادت وتيرة الإصابات، وارتفعت نسبة الوفيات فى بعض دول العالم، ظل

رقم الوفيات الإجمالى بالعالم لا يتعدى 380 ألف وفاة. وهو عدد يقل عشرات المرات عن أى جائحة كبري قديمة أو معاصرة.

إلا أن كورونا كان الأكثر تأثيراً فى العالم لأسباب أخرى..

كوفيد 19 كان الأسرع انتشاراً بفضل تقدم وسائل النقل، كما كان الأوسع تفشياً وتخطياً للحدود؛ إذ لم تسلم منه سوى دول قليلة معدودة على أصابع اليدين. وكانت أكثر الدول تضرراً أكثرها تقدماً!

لكن وباء كورونا تسبب فى آثار اقتصادية هى الأفدح على مدار التاريخ، وربما استمر مثل هذا التأثير السلبي لسنوات تالية. بخلاف آثاره الاجتماعية والنفسية.

كورونا بين خرائط الوبائيات

لو اعتبرنا أن تعداد مصابي كورونا حتى مطلع مايو ظل على حاله دون زيادة كبيرة، أى نحو 6 ملايين حالة تَماثَلَ ثلثهم للشفاء، وأن الوفيات لم تزد عن نصف مليون وفاة.. فأين يكون موضع كورونا بالنسبة للأوبئة التى اجتاحت العالم قديماً وحديثاً؟

1 – **الجدرى**: هو أحد أقدم الأوبئة على الأرض، وقد تسبب فى وفاة وتشويه وعمَى مئات الملايين من البشر (نحو 500 مليون ضحية) خلال فترات الاجتياح والانتشار والتفشي للوباء الرهيب. ولهذا كان احتفاء العالم كبيراً بالقضاء على هذا الوباء نهائياً واختفائه

من على وجه البسيطة عام 1979م، واحتفلت منظمة الصحة العالمية عام 2019 م بمرور 40 عاماً على التخلص من هذا الوباء.

2 – **الطاعون**: عانَى العالَم من اجتياح وباء الطاعون بأنواعه «الدبلى،الرئوى،الوعائى» وكانت فترات الاجتياح تظل على مدى شهور وسنوات، حتى تجاوز عدد ضحايا الطاعون عبر التاريخ 100 مليون وفاة.

3 – **الأنفلونزا**: تُعتبر الأنفلونزا من الفيروسات الحديثة نوعاً إذ يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر، وأشهر وأسوأ نوبات انتشارها ما حدث عام 1918م عندما انتشرت الأنفلونزا الأسبانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى أوروبا والعالم، وتسببت فى موت نحو 75 مليون آدمى.

4 – **الكوليرا**: من أخطر الأوبئة التى مرت على الأرض، وقبل أن يتم التعرف على الجرثومة المسببة للمرض واكتشاف علاج له حدثت سبعة موجات من جائحة الكوليرا فى العالم أسقطت ما يزيد عن 40 مليون شخص.

5 – **الإيدز**: هو أحدث وأخطر الأوبئة فى التاريخ، وأسقط من الضحايا خلال فترة عمره القصيرة (44 عاماً – منذ 1976م) نحو 36 مليون آدمى.

تلك هى أخطر الأوبئة وأشدها فتكاً على مدار التاريخ، وهناك عدة أوبئة أخرى تسببت فى موت الملايين والألوف من البشر قديماً وحديثاً من أهمها: (الملاريا، والحصبة، والتيفويد، والحمى الصفراء، وحمى الضنك، والتهاب السحايا، والليشمانيا، والإيبولا، والشيكونجونيا،والهندرا، وشلل الأطفال).

ولا شك أن تقدم الوسائل الطبية والتكنولوجية، وارتفاع الوعى الجماهيري، وسرعة وسائل الاتصال والانتقال، كلها عوامل أسهمت كثيراً فى تقليل حجم الخسائر البشرية التى كان من الممكن أن تصل إلى أضعاف الأرقام الحالية لو أن وباء كوفيد19 حدث فى ظروف وزمن مختلفين.

كورونا بين الوفيات السنوية عالمياً

إذا مر عام 2020 مكتفياً بما حصده من ضحايا بسبب كورونا حتى الآن.. فأين يمكن وضعه أمام أكثر عشرة مسببات للوفاة فى العالم؟

طبقاً لمنظمة الصحة العالمية فى إحصائية ترجع إلى عام 2016م.. أن عدد الوفيات بالعالم بلغ نحو 56 مليون وفاة. وسُجلت أكثر الوفيات جراء مرض القلب والسكتة الدماغية بوفيات وصلت إلى 15 مليون وفاة. والانسداد الرئوى 3 مليون وفاة، وسرطان الرئة 2 مليون وفاة.. ما يعنى أن مضاعفات التدخين استأثرت وحدها بنحو 40٪ من أسباب الوفاة، أو نحو 20 مليون وفاة سنوياً فى العالم.

تمثلت الأسباب التالية فى أمراض: (السكر، السل، الخرف وأمراض الشيخوخة، الإسهال،الإيدز). كما أودت حوادث الطرق بأرواح نحو 1.5 مليون شخص سنوياً!

وطبقاً لهذه الإحصائية فإن مرض كورونا المستحدث ليس من بين العشرة أسباب الأولى للوفيات فى العالم أصلاً.

بل هو لم يقترب من الرقم الذى يتسبب فيه القاتل رقم 10 فى العالم وهو السل، والذى أدى لمقتل أكثر من مليون شخص عام 2016م.

الفصل
الثالث

شائعات وحقائق

(من مزايا الثقافة..
أنها تجعلنا نرى همومنا أوضح..
ولكن مع تعميق عجزنا عن علاجها.).

أنيس منصور

من كتاب (كيمياء الفضيحة)

أرقام وإحصائيات

خمسة أشهر تعاقبت على الجائحة والأرقام تتغير كل يوم، بل كل ساعة..

ما يقرب من نصف عام كامل والفضائيات لا همّ لها إلا متابعة كل شئ عن كورونا بالورقة والأرقام.. ووكالات الأنباء تتنافس فى استعراض أحدث الإحصائيات عن الوباء فى كل مكان بالعالم..

ظلت أرقام الإصابات أقل من مليون إصابة حتى آخر مارس، ثم تخطت المليون إصابة فى الثالث من أبريل. وقبل أن ينتهى الشهر كانت الأرقام قد تضاعفت لتتخطى حاجز 3 ملايين، ثم تضاعفت مرة أخرى لتتخطى حاجز 6 ملايين إصابة مع بداية شهر يونيو!

الدول العشر الأولى

بعد أن كانت الصين تتصدر قائمة الأكثر تضرراً جراء الإصابات والوفيات بوباء كوفيد19 باعتبارها مصدر الجائحة، خرجت الصين من دائرة العشر الأوائل بعد ثبات الأرقام فى الصين وارتفاعها المخيف بأمريكا وأوروبا وروسيا والبرازيل.. وتشير الأرقام فى مطلع شهر مايو إلى ما يلى:

1 – **الولايات المتحدة الأمريكية: «الأولى عالمياً»**

اقترب عدد الإصابات فى أمريكا وحدها من 2 مليون مصاب حيث سجلت (1.816.900)إصابة، بينما بلغ عدد الوفيات بها (105.557) وفاة.

2 – **البرازيل:**

حتى أواخر مارس لم تكن البرازيل من بؤر التفشى، بل إن رئيسها كان يعتبر الجائحة مجرد مبالغة إعلامية. وفى أول مايو تعدت الصين ثم قفزت فى آخره لتصير الثانية فى الترتيب من حيث الإصابات بمجموع وصل إلى نحو نصف مليون إصابة، وعدد وفيات وصل إلى (28.849) وفاة.

3 – **روسيا:**

حتى أول أبريل لم تكن روسيا من الدول العشر الأولى من حيث تفشى الجائحة، وخلال أقل من شهر تضاعفت الإصابات من أقل من 10 آلاف إصابة حتى وصلت فى أول مايو إلى أكثر من 100 ألف إصابة، ثم قفزت قفزة أخرى خلال شهر واحد لتتعدى 400 ألف إصابة، إلا أن الوفيات بها لم تتعدى خمسة آلاف وفاة بخلاف أمريكا والبرازيل. فهل أرقام الإصابات المعلنة فى روسيا أرقام مبالغة؟

4 – **إسبانيا:**

تعدَّى عدد المصابين بإسبانيا ربع مليون حيث سجلت فى آخر مايو حوالى (286.308) مصاب، والوفيات(27.125) وفاة.

5 – **المملكة المتحدة:**

تسارعَت الأرقام فى بريطانيا، حتى باتت الخامسة عالمياً خلال شهرى أبريل ومايو بينما كانت فى ذيل قائمة العشر الأوائل من حيث انتشار الإصابات فى نهاية مارس. وتعدت الربع مليون إصابة لتسجل (272,826) إصابة. ونحو 38 ألف وفاة.

6 – **إيطاليا:**

سارت مع إسبانيا حذو النعل بالنعل منذ بداية الوباء. حيث وصل عدد الإصابات بها (232,664) مصاب. والوفيات (33,340) وفاة

7 – **فرنسا:**

وصل إجمالى عدد الإصابات بفرنسا إلى (188,625) مصاب. والوفيات(28,771) وفاة.

8 – **ألمانيا:**

رغم تسجيل عدد كبير من الحالات الإيجابية فى ألمانيا إلا أن نسبة الوفيات بها أقل كثيراً من قريناتها الأوروبيات. ففى حين وصلت الإصابات بها إلى نحو 183 ألف إصابة، بلغ عدد الوفيات (8600) وفاة.

9 – **تركيا:**

كذلك تسارعت وتيرة تفشى الوباء فى تركيا خلال شهر أبريل ليصل عدد الإصابات بها فى نهاية مايو إلى (163,103)، والوفيات نحو 4,5 آلاف وفاة.

– (ص 71) الفاصلة فى الأرقام الخاصة بالأعداد والإحصائيات ؟

ملاحظة غير واضحة ما المطلوب؟؟؟

10 – **البيرو:**

قفزت الأرقام فى هذه الدولة من نحو 37 ألف إصابة فى مطلع مايو لتتجاوز إيران التى كانت من الدول العشر الأوائل حتى منتصف مايو، ووصلت الإصابات فى البيرو إلى (155.671)إصابة، والوفيات (4371)وفاة.

دول < 50 ألف إصابة

– إيران: (148.950) إصابة.. (7734) وفاة.

– تشيلي: (94.858) إصابة..(997) وفاة.

– كندا: (53.236) إصابة.. (3184) وفاة.

– المكسيك: (87.512)إصابة.. (7073) وفاة.

– المملكة العربية السعودية: (83.384)إصابة..(480) وفاة.

– الصين: (83.001)إصابة.. (4634) وفاة.

– باكستان: (69.496)إصابة..(1483) وفاة.

– بلجيكا:(58.186) إصابة.. (9453) وفاة.

– قطر: (55.262)إصابة.. (36)وفاة.

دول بين (30: 50) ألف إصابة:»بالترتيب من الأعلى للأدنى»

هولندا – بنجلاديش – بيلاروسيا – الإكـوادور – السويد – سنغافورة – الإمارات العربية المتحدة – البرتغال – جنوب أفريقيا – سويسرا.

دول بين (10 : 30) ألف إصابة: «بالترتيب من الأعلى للأدنى»

كولومبيا – الكويت – اندونيسيا – ايرلندا – أوكرانيا – بولندا – مصر – رومانيا – الفلبين – إسرائيل – الدومنيكان – اليابان – النمسا – الأرجنتين – أفغانستان – بنما – الدنمارك – كوريا الجنوبية – صربيا – كازاخستان – البحرين – عمان.

إجمالى حالات التفشى بالعالم

– إجمالى الإصابات(6,226,242) إصابة.

– إجمالى الوفيات (372,744) وفاة.

– إجمالى حالات الشفاء (2,779,488) حالة شفاء.

قراءة فى أرقام كورونا:

1 – بعض الدول حققت نسباً عالية فى تحجيم الوباء وعلاجه فى مقدمتها الصين نفسها التى انطلق منها الوباء، وبلدان أخرى كاليابان وكوريا الجنوبية واستراليا والنمسا حققت معدلات مرتفعة للشفاء.. ولا شك أن النظم العلاجية فى هذه البدان وصلت إلى مستويات أعلى من غيرها، وحبذا لو حذت باقى الدول حذوها وقامت بتعديل بروتوكولاتها العلاجية وفقاً لما حدث فى مثل تلك البلدان.

2 – دول أخرى تميزت بانخفاض معدَّلات الوفيات بها مقارنةً بالمتوسط العالمى، رغم الارتفاع السريع والضخم

لمعدلات الإصابات بها. ومن بين تلك الدول: روسيا، والسعودية، وتركيا، وقطر، والإمارات، وتشيلي، وباكستان، والهند، وبنجلاديش، وسنغافورة، والبرتغال، وجنوب أفريقيا. فهل حدث ذلك بسبب تطوير نظم الفحص وارتفاع عدد المسحات اليومية هناك؟ أم أن هناك مبالغة فى أعداد الإصابات فى بعض تلك البلدان؟ وما الحكمة من المبالغة فى أرقام الإصابات؟

3 – هناك انتقال لبؤرة الوباء بين القارات.. آسيا فى يناير وفبراير، ثم أوروبا فى مارس، ثم أمريكا فى أبريل، ومؤخراً باتت دول أمريكا اللاتينية هى البؤرة الجديدة خلال شهر مايو.. فقد تسارعت وتيرة الإصابات فى البرازيل والبيرو وتشيلي والمكسيك، فيما استطاعت دول أخرى كالأرجنتين وكولومبيا وبنما من السيطرة نوعاً على معدلات الإصابة.

4 – الشمال الأفريقي شهد تفاوتاً نوعياً فى معدلات الإصابة.. مصر الأعلى بمجموع وصل لنحو 25 ألف إصابة، وليبيا هى الأقل بمجموع إصابات لا يتعدى 130 حالة.. الجزائر نحو 10 ألاف إصابة، والمغرب 8 آلاف، وتونس ألف حالة، موريتانيا 500 إصابة.

5 – عدد من الدول المتاخمة للصين لم تتضرر كثيراً بالوباء رغم قربها من مصدر الجائحة، وظلت معدلات الإصابة

بها محدودة نوعاً، ومن هذه الدول: (تايلاند 3آلاف إصابة و57 وفاة – سيريلانكا ألف إصابة و10 وفيات – نيبال ألف إصابة و6 وفيات – هونج كونج ألف إصابة و 4 وفيات – تايوان 500 إصابة و7وفيات – فيتنام 300 إصابة ولا وفيات – ميانمار 224 إصابة و6 وفيات – منغوليا 200 إصابة ولا وفيات!).

تساؤلات وشائعات

ما زالت الأسئلة تنهال هنا وهناك..

والشائعات تتوالَى بلا توقف!

وأكبر شائعة هى التى روجها ترامب عن العلاج بالهيدروكسي كلوروكوين والآزيثرومايسين إذ أن البعض ممن جرَّب الخليط دون إشراف طبي أصابته مضاعفات مهلكة، ولكى يثبت فعالية الدواء قام بتناوله عدة أيام دون داعٍ قبل أن تعلن منظمة الصحة العالمية توصيتها بوقف العلاج بالكلوروكوين.

إن التساؤلات ضرورية، لأن التصرف الفردى غير الواعى أو المسئول قد يُفضى إلى كوارث. وقد جاءت الأنباء عن حالات وفاة نتجَت عن الإفراط فى استخدام المطهرات أو استخدامها بشكل خاطئ.. حدث هذا فى مصر وكينيا وبلاد أخرى.

لهذا كان من الضرورى أن يلجأ الناس لإحدى الجهات الموثوقة بأسئلتها..

وقد جاءت الردود من منظمة الصحة العالمية للأسئلة الأكثر تكراراً..

أنت تسأل.. ومنظمة الصحة العالمية تجيب..

1 – هل المضادات الحيوية فعَّالة لعلاج كوفيد19 أو الوقاية منه؟

لا، لا تقضي المضادات الحيوية على الفيروسات. بل على البكتريا فقط..وحيث أن كورونا المستجد من الفيروسات، لذلك يجب عدم استخدام المضادات الحيوية في الوقاية منه أو علاجه. ومع ذلك، قد يتم إعطاء مرضى كوفيد19 مضادات حيوية بالمستشفيات؛ لاحتمالية حدوث عدوى بكتيرية مصاحبة.

2 – هل يساعد تناول الثوم في الوقاية من العدوى بفيروس كورونا المستجد؟

يُعَد الثوم طعامًا صحيًا، ويتميز باحتوائه على بعض الخصائص المضادة للميكروبات. لكن لا يوجد ما يثبت قدرته على الوقاية من فيروس كوفيد19.

3 – هل يساعد غسل الأنف بانتظام بمحلول ملحي في الوقاية من العدوى بفيروس كورونا المستجد؟

لا. لا يوجد ما يثبت أن غسل الأنف بانتظام بمحلول ملحي يقي من العدوى بفيروس كورونا المستجد. فقط توجد بيانات محدودة بأن غسل الأنف بانتظام بمحلول ملحي يساعد في الشفاء من الزكام بسرعة أكبر. ومع ذلك، لم يثبت أن غسل الأنف بانتظام يقي من الأمراض التنفسية.

4 – هل يمكن إعادة استخدام الكمامات التي من فئة N95؟ وهل يمكن تعقيمها بواسطة معقم اليدين؟

كلا، لا ينبغي إعادة استعمال كمامات الوجه، بما فيها الكمامات الطبية المسطحة أو الكمامات التي من فئة N95.

فإذا حدثت مخالطة لشخص مصاب بالفيروس أو بعدوى تنفسية أخرى، فإن مقدمة الكمامة تعتبر ملوثة بالفعل. فينبغي إزالة الكمامة دون لمسها من الأمام، والتخلص منها على النحو السليم. وبعد نزع الكمامة، ينبغي فرك اليدين بمطهر كحولي أو غسلهما بالماء والصابون.

5 – هل ينتقل فيروس كورونا في المناطق ذات المناخ الحار مرتفع الرطوبة؟

من خلال البيانات المتوافرة إلى الآن، يمكن انتقال فيروس مرض كوفيد – 19 في جميع المناطق، بما فيها المناطق ذات الطقس الحار والرطب. وكيفما كان المناخ، لا بد من اتخاذ التدابير الوقائية إذا كنت تعيش في منطقة أُبلغ فيها عن حالات عدوى بكوفيد – 19 أو تنوي السفر إليها. ولعل أفضل طريقة للحماية من الإصابة بمرض كوفيد – 19 هي المواظبة على غسل اليدين. فبواسطة ذلك، يمكن التخلص من الفيروسات التي قد تكون عالقة باليدين، وبالتالى تجنب العدوى المحتمل حدوثها إذا لمست العينين أو الفم أو الأنف.

6 – هل مجففات الأيدي (كالتى في المراحيض العامة مثلا) فعالة في القضاء على فيروس كورونا المستجد؟

كلا، فمجففات الأيدي ليست فعالة في القضاء على كوفيد19.

وللحماية من الفيروس الجديد يجب المداومة على تنظيف اليدين بفركهما بواسطة مطهر كحولي، أو غسلهما بالماء والصابون. وبعد تنظيف اليدين يجب تجفيفهما تماماً بمحارم ورقية أو بمجففات الهواء الساخن.

7 – هل يساعد رشُّ الجسم بالكحول أو الكلور في القضاء على فيروس كورونا الجديد؟

كلا، إذ أن رشّ الجسم بالكحول أو الكلور لا يقضي على الفيروسات التي دخلت جسمك بالفعل، عن طريق الأنف أو الفم أو العين.

ثم أن تلك المواد قد تؤدى للإضرار بالملابس أو الأغشية المخاطية، أو بعض الأعضاء (كالعينين والفم). غير أن الكحول والكلور كليهما مفيدان لتعقيم الأسطح، دون إفراط أو مبالغة.

8 – هل تعمل اللقاحات المضادة للالتهاب الرئوي على الوقاية من فيروس كورونا المستجد؟

لا. لا توفر اللقاحات المضادة للالتهاب الرئوي الوقاية من فيروس كورونا المستجد. هذا الفيروس جديد تمامًا ومختلف،

ويحتاج إلى لقاح خاص به. ويعمل الباحثون على تطوير لقاح مضاد لفيروس كورونا المستجد – 2019، وتدعم منظمة الصحة العالمية هذه الجهود. ورغم أن هذه اللقاحات غير فعَّالة ضد فيروس كورونا المستجد – 2019، يُوصَى بشدة بالحصول على التطعيم ضد الأمراض التنفسية.

9 – هل يَحول وضع زيت السمسم على البشرة دون دخول فيروس كورونا المستجد إلى الجسم؟

لا. لا يقضي زيت السمسم على فيروس كورونا المستجد. هناك بعض المطهرات الكيميائية التي تقتل فيروس كورونا المستجد – 2019 على الأسطح. وتشمل مطهرات تحتوي على الكلور، والإيثَانُول بتركيز 75٪، وحمض البيرُوكْسِي آسِتِيك، والكلُورُوفُورْم. إلا أن تأثير تلك الكيماويات على الفيروس منعدم إذا وُضِعَت على البشرة أو أسفل الأنف. بل من الخطر وضع هذه المواد الكيميائية على البشرة.

10 – مَنْ الأكثر عُرضة للإصابة بفيروس كورونا المستجد، كبار السن أم صغار السن؟

يمكن أن يُصاب الأشخاص من جميع الأعمار بفيروس كورونا المستجد – 2019. ويبدو أن كبار السن، والأشخاص المصابين بحالات مرضية سابقة مثل: (الرَبْو، وداء السُكَّريّ، وأمراض القلب)

هم الأكثر عُرضة للإصابة بمرض وخيم في حال العدوى بالفيروس. وتنصح منظمة الصحة العالمية الأشخاص من جميع الأعمار باتباع الخطوات اللازمة لحماية أنفسهم من الفيروس، مثل غسل اليدين جيدًا والنظافة التنفسية الجيدة(الاستنثار).

11 – هل تقضي مصابيح التعقيم بالأشعة فوق البنفسجية على فيروس كورونا الجديد؟

ينبغي عدم استخدام مصابيح الأشعة فوق البنفسجية لتعقيم اليدين أو أي أجزاء أخرى من الجلد؛ لأن هذه الأشعة يمكن أن تسبب حساسية للجلد.

12 – هل هناك أي أدوية محددة للوقاية من فيروس كورونا المستجد أو علاجه؟

حتى تاريخه.. لا يوجد أي دواء محدَّد مُوصى به للوقاية من فيروس كورونا المستجد – 2019 أو علاجه. ومع ذلك، يجب أن يحصل المصابون بالفيروس على الرعاية المناسبة لتخفيف الأعراض وعلاجها، كما يجب أن يحصل المصابون بمرض وخيم على الرعاية الداعمة المُثلى. ولا تزال بعض العلاجات تخضع للاستقصاء، وسيجري اختبارها من خلال تجارب سريرية. وتتعاون منظمة الصحة العالمية مع مجموعة من الشركاء على تسريع وتيرة جهود البحث والتطوير.

لم تنتهِ الأسئلة، حيث لم تُجِب المنظمة سوى عن قليل من كثير..

كما لم تتوقف الشائعات، لأن تدفق سيالات الأخبار والمعلومات يخلط الحق بالباطل، فلا يكاد أحد يعرف إن كان ما يثار حقيقة أم لا..

وبطبيعة الحال، لا يمكن فى خضم شلال الشائعات والأسئلة أن تتم الإحاطة إلا بما يستطاع مما يثار.. ومن بين أهم ما أثير مؤخراً:

- **هناك حالات بالصين أصيبت مجدداً بعد التعافى، لماذا؟ وكيف؟**

أجاب عن مثل هذا التساؤل د. أمجد الخولى خبير الوبائيات بمنظمة الصحة العالمية، حيث أشار إلى عدم وجود نسبة محددة أو مؤكدة لعودة المرض لنفس الشخص. كما لا تتوافر معلومات كافية للتأكد إن كانت الإصابة الجديدة ناتجة عن الإصابة القديمة منقوصة الشفاء، أو أنها إصابة جديدة. كما أن مدة المناعة التى يكتسبها الجسم ضد الفيروس بعد الشفاء ما زالت مجهولة.

- **ماذا عن المعقمات والمنظفات المصنعة بالمنزل، هل هى فعالة؟**

عقب انتشار بعض التقارير المرئية عن إمكانية صناعة المعقمات بالمنزل.. أشارت د. سالى بلومفيد الأستاذة بكلية لندن للصحة أن مثل تلك المنتجات فى أغلبها غير فعال بسبب صعوبة التأكد بالأدوات البدائية من التركيز المطلوب للمادة المعقمة.

هذا ويُجمل د. زياد بسيونى «عضو الكلية الملكية الأسترالية للطوارئ» فى بوست منتشر بوسائل التواصل نصائحه منعاً لتأثير الشائعات التى أسهمت الفضائيات فى الترويج لها أحياناً، أن: (الغرغرة بالخل أو الليمون لا تمنع الفيروس – والسوائل الدافئة أو الباردة لا تمنع الفيروس (قد تساعد جهاز المناعة) – تناول الليمون لا يمنع الفيروس، وكذلك فيتامين سي – كما أن مضادات الفيروسات التقليدية لا تمنع الفيروس – تناول الينسون والكركم لا يمنع الفيروس – الجو الحار والرطوبة لا تمنع الفيروس – رش الكحول والكلورين لا يمنعان الفيروس – الاستحمام بماء ساخن لا يمنع الفيروس – غسيل الأنف بشكل متكرر لا يمنع الفيروس – الثوم لا يمنع الفيروس – المضادات الحيوية لا تمنع الفيروس ولا تعالج أي فيروس – الناموس لا ينقل الفيروس – لا يوجد تطعيم حالي لمنع الفيروس، وقد يظهر التطعيم في خلال ١٨ شهر).. ثم أجمل نصائحه الخاصة بإجراءات مقاومة العدوى: (غسل اليد بشكل متكرر – منع السلام باليد والأحضان والتقبيل – استخدام الكمامات (بكل أنواعها) – البعد عن الأماكن المزدحمة – البعد متر ونصف عن أي مشتبه بالإصابة – عزل المرضي والمشتبه في إصابتهم).

أنباء ومفارقات

لم تتوقف الآلة الإعلامية عن ملاحقة أخبار كورونا فى كل مكان..

هناك حالة هوس لجلب الأخبار والمعلومات من أى مكان وبأى طريقة ومهما كان الثمن، حتى لو كان الثمن أن مراسلين قضوا جَرّاء تتبعهم للفيروس وأخباره.

بعض تلك الأنباء حملت فى طياتها مفارقات ورسائل ودلالات، وبعضها بشّرت العالم بوجود علاج، رغم أن منظمة الصحة العالمية تصرخ مؤكدة: لا يوجد علاج. فمن نصدق؟ ثم كيف تأتى دولة كأمريكا أو ألمانيا فيعلنان عن أمصال وعلاجات فى طور التجريب وأنها أثبتت فاعليتها، ثم تأتى أرقام الوفيات لديهما لتكذيب تلك المزاعم. وعلى الناحية الأخرى لا تتحدث الصين أن لديها علاج للفيروس، رغم أن أغلب الحالات لديها تم شفاؤه. تناقضات ومفارقات تثير الدهشة والتساؤل.. ولا شك أن الشيطان يكمن فى التفاصيل..

الماء.. هل يشفى من كوفيد19؟

خبر طريف نقله موقع الإمارات اليوم عن صحيفتى الجارديان البريطانية، ودويتشه فيله الألمانية. يتناول قصة قرية إيطالية محصنة ضد فيروس كوفيد19، والسبب يكمن فى بئر ماء!

القرية يقطنها أقل من ألف شخص أغلبهم من المسنين. لا توجد بها أية إصابات بالمرض رغم وقوعها فى إقليم لومبارديا الأكثر تضرراً بالوباء! ويحكى التاريخ أن أهل هذه القرية عالجوا نابليون بونابرت عام 1800م من التهاب رئوى ألمَّ به!

الأمر أثار دهشة المراقبين، لدرجة أن خبراء الصحة فى إيطاليا اعتزموا دراسة مياه ذلك البئر الذى قيل أن له قدرات شفائية!

على الناحية الأخرى يتحدث خبراء روسيّون أنهم بصدد تطوير نوع من الماء يشفى من كورونا! كما نُقل عن موقع روسيا اليوم، أن بعض الخبراء من شركة «ماجناريل أكوا» اكتشفوا طريقة لمعالجة المياه بالبلازما الباردة تجعله قادراً على تدمير أعتى أنواع الجراثيم على اختلاف أنواعها: فيروسات، فطريات، أو بكتريا!

أطلق أصحاب الابتكار اسم «ماجناريل» على ماء البلازما.. وشرحوا أن لهذا الماء القدرة على التخلص من فيروس كوفيد19 فى الجو والأسطح، وأنه آمن للبشر، ومنخفض التكلفة.

هل اقترب العلاج؟

يدَّعى معهد «ماكس بلانك» الألمانى للأبحاث العلمية، أنه بصدد اختبار مصل جديد ضد كوفيد19 كان فى الأصل تطويراً لمصل اختبارى ضد مرض السل يُدعَى (VPM1002). وفى حين أكدت المنظمات العالمية عدم جدوى استخدام الأمصال القديمة لعلاج

كوفيد19 باعتباره سلالة جديدة تماماً، إلا أن الباحثين الألمان عكفوا على تجريب المصل على مجموعة من كبار السن المتطوعين.

من ناحية أخرى، ووفقاً لوكالة أنباء «تاس» الروسية أن علماء من معهد البيولوجيا الكيميائية التابع للأكاديمية الروسية للعلوم أعلنوا جاهزيتهم لتطوير علاج لفيروس كورونا مُستخلَص من دماء أولئك الذين تم شفاؤهم؛ حيث تحتوى تلك الدماء على أجسام مضادة كوَّنَتها أجساد الناجين ضد كوفيد19.

هذا وقد صادقت وزارة الصحة الروسية على أول دواء مضاد لفيروس كوفيد19، حيث أصدرت تصريحاً رسمياً باستخدام عقار «أفيفافير» لعلاج المصابين به.

وبحسب «روسيا اليوم» فقد بلغت نسبة فعالية هذا العقار أكثر من 80٪، وأن الاختبارات السريرية أكدت عدم رصد آثار جانبية مقلقة لهذا الدواء.

أما النبأ الأغرب هو أن شركة شهيرة للتبغ هى شركة: «لكى سترايك» تعتزم تطوير لقاح لكوفيد19، وأنها تعتزم إنتاج 3 ملايين جرعة من اللقاح. كما أعلنت شركة «بريتيش أميريكان توباكو» أن شركتها التابعة: «كنتاكى بيو بروسيسينج» وجدَت بالفعل علاجاً لكورونا مستخلصاً من نبات التبغ.وأن الشركة استخلصت جزءاً من التسلسل الجينى للفيروس وطورت على أساسه مصلاً فى طور التجريب.

هذا السباق المحموم لدى شركات الدواء.. هل هو سباق للفوز بحصيلة علاج قد تفوق عائداته ميزانيات دول، أم هو سباق تاريخى من أجل الإنسانية والإنسان؟

المال صار الآن أرخص الأشياء فى نظر الناس، بعد أن بات الموت قريباً منهم. وهذا ما دفع بعض عائلات المافيا فى إيطاليا، طبقاً لمزاعم الإعلام البديل، للتبرع بمبالغ طائلة لغرض واحد فقط: هو تطوير لقاح لعلاج كوفيد19. فهل ينتصر الجشع، أم ينتصر العلم؟

وباء فى عرض المحيط

بعد حادثة باخرة سان فرانسيسكو فى النصف الأول من مارس الماضى، تلك الباخرة التى ظلت طويلاً فى عرض البحر قبل أن تجد ميناءً يستقبلها بعد اكتشاف حالات مصابة بوباء كورونا بها. ورغم قلة الحالات المصابة على متنها وسرعة احتواء وعزل الحالات وعلاجها. إلا أن البعض ربط بين وصول الباخرة واستفحال الوباء فى أمريكا خلال النصف الثانى من مارس.

هذا الأمر سبب حرجاً لسائر البواخر والسفن المبحرة فى عرض البحر، خاصةً تلك التى توجد بها حالات مشتبه بإصابتها.. فهناك على سبيل المثال السفينة (دايامونـد برينسيس) التى وصل عدد المصابين على متنها إلى أكثر من 700 مصاب.. والسفينة السياحية (MS Zandam) التى ظلت قبالة ساحل بنما لأسابيع وعلى متنها

نحو 1200 مسافر قبل أن توافق أمريكا على استقبالها كترانزيت لاستقبال مواطنيها العالقين بها. فهل لن تجد السفن التى ترفع راية الوباء ميناءً تبحر به؟ وهل تظهر القرصنة والتسلل ليلاً كبديل غير رسمى لرسو السفن والبواخر؟

مؤخراً، ومن الأنباء التى حملت طابع المفارقة، أن عدداً من الأسبان أبحر سراً إلى المغرب هرباً من الوباء كنوع من الهجرة غير الشرعية العكسية! فهل هى الحالة الأولى، وهل تظل حالة وحيدة، أم يتلوها غيرها؟!

الأدهَى ما جاء من أنباء عن تعرض حاملة الطائرات الأمريكية «روزفلت» التى كانت تحمل على متنها أكثر من 5000 شخصاً لتفشى الجائحة. وأن قادة سلاح البحرية لم يستجيبوا سريعاً للنداء، بل ظلت روزفلت تستغيث أياماً قبل أن يرسل لها الجيش الأمريكي إمدادات طبية للسيطرة على انتشار المرض بين ركابها.

على الناحية الأخرى من الشاطئ هناك مَن وجد الفرصة لاستثمار الأزمة بتأجير اليخوت لمن يريد الهروب من جحيم البر!

فقد أشارت صحيفة تلجراف» البريطانية أن جوناثان بيكيت الرئيس التنفيذى لشركة برجس لليخوت يؤجر يخوتاً لعائلات تطلب أن تنعزل عزلاً ذاتياً طويلاً فى عرض المحيط. وأن عائلة استأجرت منه يختاً لتسعة أسابيع. وهناك من استأجرها لمدة أطول! مفارقة ينطبق عليها المثل: «مصائب قومٍ..! ورُبَّ ضارةٍ نافعة»!

هكذا تحققت نبوءة الأدب العالمى متمثلةً فيما جاء فى رواية أديب نوبل العالمى (جابرييل جارسيا ماركيز) المسماة: (الحب فى زمن الكوليرا) والتى انتهت بمشهد سفينة تبحر فى عرض البحر بأبطال الرواية وهى ترفع راية الوباء، فلا السفينة ترسو، ولا الرواية تفضى إلى نهاية قاطعة، حيث مصير أبطالها يظل مجهولاً..

إن الأرقام تتحدث اليوم عن وصول أعداد العالقين فى المياه إلى ما يزيد عن 100 ألف شخص، فهل حدث هذا عن اضطرار وحتمية قدرية أم عن اختيار وقصد؟

مشاهير فى قبضة كورونا

تواترت الأخبار عن إصابة بعض مشاهير الرياضة والفن والسياسة بوباء كورونا، وأن بعضهم قضى نحبه جراء الإصابة.

فمن بين نجوم الفن الذين أعلنوا إصابتهم بالوباء وخضوعهم للعزل الطبي الممثل توم هانكس وزوجته الممثلة ريتا ويلسون، وكلاهما عاد أدراجه من استراليا لأمريكا بعد تماثلهما للشفاء، وكانا من بين أوائل المصابين بالوباء.

كذلك شفى النجم العالمى إدريس ألبا ومغنية البوب الأمريكية بينك وولى والممثلة الأوكرانية أولجا كيرلينكو بعد خضوعهم للعلاج والعزل بسبب الوباء.

وكان من بين المصابين بطل مسلسل «Game of Thrones» النجم كريستوفر هيفجو، وبطلة فيلم الأنيميشن «Frozen II» راتشيل ماثيوز، والممثلة الهندية «كانيكا كابور» ورئيس يونيفرسال ميوزيك جروب لوسيان جرينج.، والكاتب التشيلى لويس سيبولفيدا.

ومن بين مشاهير الرياضة الذين أصيبوا بالوباء مدرب الأرسنال ميكيل أرتيتا، واللاعب كالوم هادسون أودوى من فريق تشيلسي، كما أصيب نجما اليوفنتوس بليز ماتويدى ودانييلى روجانى، وكذلك باولو مالدينى أسطورة نادى ميلان السابق، وجميعهم تماثلوا للشفاء بعد فترة من العلاج والعزل.

ومن بين ضحايا كوفيد19 الذين قضوا جراء الإصابة بالوباء: نجم حرب النجوم»أندرو جاك»، وعازف الساكسوفون الشهير مانو ديبانجو، والموسيقى أوليفر ستوكس جونيور الملقب ببلاك ميد، وكذلك المغنى أورلوس ميبلى نجم موسيقي الرومبا الكونغولية الحديثة.. كما توفيت الإعلامية الأمريكية ماريا ميركادر بعد إصابتها بالفيروس.

كما توفى الرئيس الأسبق لرياال مدريد لورنزو سانز، ومصمم ملعب جنوة المهندس المعمارى الإيطالى فيتوريو جريجوتى.

هذا بخلاف عدد كبير من السياسيين وزعماء الدول، مثل رئيس وزراء كندا جاستن ترودو الذى عزل نفسه بعد أن تبيّن إصابة زوجته

صوفى جريجوار بالمرض. وهناك وزير الثقافة الفرنسي فرانك ريستر، وأمير موناكو ألبرت الثانى ووزيرة الصحة البريطانية نادين دوريس، وكبير مفوضى الاتحاد الأوروبي ميشيل بارنييه، وشخصيات سياسية أخرى بارزة فى كل من أسبانيا والبرازيل ونيجيريا وبوركينا فاسو.. وغيرهم.

وإن كانت أكثر الحالات التى نالت تعليقات كثيرة على وسائل التواصل لما تحمله من مفارقة: إصابة ولى العهد البريطانى الأمير تشارلز أمير ويلز، ورئيس وزراء بريطانيا بوريس جونسون، ووزير صحته ماثيو هانكوك، وجميعهم تماثلوا للشفاء. بينما نجت الملكة إليزابيث ذات التسعين ربيعاً من الإصابة!

كأن الحكمة هنا أن الوباء بلا قانون، وأن سيفه لا يميز بين فقير أو أمير، ولا بين شهير ومغمور. الجميع عادوا سواسية أمام نذير المنايا.

إعلام كورونا..
بين الحقائق والأباطيل

من بين أهم التناقضات التى ظهرت على الساحة أن الفضائيات ووسائل الإعلام المرئية باتت تمثل أحياناً مصدراً كبيراً للشائعات والأكاذيب وإثارة الهلع..فى حين بات الإعلام الجماهيري كالصحف والسوشيال ميديا مصدراً للحقائق البديلة وبث الطمأنينة والتفاؤل!

السخرية.. سلاح المصريين ضد الخوف

تعليقات صحفية وإعلامية كثيرة، عربية ودولية، صَبَّت اهتمامها حول طريقة المصريين فى التعامل مع أزمة كورونا. قالوا: «أن تلك طريقة المصريين المعتادة لمواجهة الأزمات، لكن ماذا عن مواجهة الموت؟ هل سخريتهم من نوع الكوميديا السوداء؟ أم مؤشر للتسليم واللامبالاة؟

تلك الملاحظة ليست جديدة، بل جاءت على لسان كثير من المؤرخين ومن بينهم مؤرخى علوم الوبائيات.. فقد جاء فى مقدمة كتاب الأوبئة والتاريخ لشيلدون واتس اقتباس من كتاب قديم

آخر يسرد مشاهدات «إلكسندر كينجلاك «عام 1835م لتصرف المصريين تجاه وباء اجتاح المدينة، فيقول: (القاهرة والطاعون.. كان الطاعون سيد المدينة طوال فترة إقامتى، وظهر الخوف فى كل شارع وكل حارة.. يمتلك الشرقيون حظاً وافراً أكثر من أوروبا تحت بلوى هذا النوع.. نُصبت الخيام، وعُلِّقَت المراجيح لتسلية الأطفال – عيد كئيب – لكن المسلمين تباهوا باتباعهم لعاداتهم القديمة غير عابئين بظلّ الموت). ويعلق شيلدون على كلام كينجلاك قائلاً: (أثناء الحياة والكتابة فى مدينة إسلامية كبيرة بعد 160 سنة من ملاحظة كينجلاك صدمتنى استمرارية وحدة الثقافة الإسلامية عندما تُواجَه بأزمات تهدد الحياة.)،، وفى نهاية تلك المقدمة الطويلة يعود ليقول: (.. يبقَى أن الناس العاديين من النوع الذى لاحظه ألكسندر كينجلاك فى المقابر القاهرية عام 1835م، ورأيته أنا فى شوارع القاهرة مراراً وتكراراً، أظهروا رغبتهم فى قَبول تساوى القيمة والكرامة لكل شركائهم من البشر.. فى مثل هؤلاء الناس توجد بذور مستقبل أكثر إنسانية).

السر إذن ليس فى السخرية ذاتها، بل ما تحمله السخرية من دِلالة..

سخرية المصريين فى زمن الأزمة بهذا الفهم، لا تعنى الاستسلام واللامبالاة السلبية، بل هى ذات دلالة إيجابية فلسفية عميقة، حيث

ينبع الشعور بالأمان من جَوف مشاعر الخوف بالتهوين منه. فالخوف شعور، والتهكم رد فعل مضاد يهدف لقهر مشاعر الرعب والفزع. ومثل هذا النوع من التهكم لا ينتمى للكوميديا السوداء والسخرية العدمية المريرة، بقدر ما ينتمى لعمق الفهم ورباطة الجأش.

إن نهايات أغلب الكتابات الخاصة بالأدباء الجادِّين أصحاب الرؤى والأفكار العميقة المؤثرة، كانت من نوع السخرية والملهاة.. هذا ما حدث مع المازنى ويحيى حقى وأنيس منصور وحتى أحمد شوقى الذى تأثر فى هذا المَنحَى بوليم شكسبير. مثل هذا الأمر قد تلاحظه حتى لدى النقاد، فقد اهتم بعض كبار النقاد والفلاسفة كهنرى برجسون وهوبز وكانط وكيركجورد، بل وحتى سقراط وأفلاطون بالفكاهة والسخرية وتحدثوا عنها بإسهاب.. وللناقد د. شاكر عبد الحميد وزير الثقافة الأسبق كتاب نقدى هو (الفكاهة والضحك) يتحدث فيه عما يُدعَى «الجروتسكية – Grotesque» وهى أسلوب من أساليب الفن والتصوير تمتزج فيه السخرية بالرعب. وهو أسلوب فنى ساد فى فترات القرون الوسطى التى انتشرت فيها الأوبئة والجوائح. وتنسحب الجروتسكية فى نظر د. شاكر على بعض الأفلام الهوليودية الحديثة، كسلسلة أفلام «Scary Movie» والتى يختلط فيها الرعب والمشاهد الدموية بالضحك والتهكم والمحاكاة. والمقصود هنا هو التهوين من أثر الخوف لإحداث الطمأنة.

إن الارتباط بين مشاعر الهلع وبين التهكم والسخرية ارتباط نوعى يمثل ردة فعل ناضجة لدى المصريين، وهى ليست من باب الاستهانة واللامبالاة، بقدر ما هى محاولة ذاتية لبث الطمأنينة فى النفوس منطلقةً من حقيقة التسليم والإيمان بالقدَر.

بيزنس السوشيال ميديا

فى حين أدت أزمة وباء كورونا إلى أزمة موازية اقتصادية عالمية فقَدَ على إثرها الكثير وظائفهم، وعانَى كثيرون من تدهور أحوالهم المادية، حتى من رجال الأعمال الأثرياء، لدرجة أن يهدد بعضهم بالانتحار!

إلا أن الوجه الآخر للعملة شهد طائفة أخرى من رواد السوشيال ميديا ممن أحسنوا استغلال الأزمة لصالحهم، أو لصالح جيوبهم!

شركات كثيرة أمريكية وأوروبية شجعت موظفيها على العمل عن بعد، أى استغلال فترات بقائهم فى المنزل لإنهاء الأعمال المتعطلة، ونجحت الفكرة مع كثيرين لدرجة أنهم فكروا فى الإبقاء على تلك الطريقة حتى بعد جلاء الأزمة..

وتمثَّل النموذج الأمثل لاستغلال فرصة أزمة كورونا لصناعة المال فى (جيف بيزوس) الذى زادت ثروته منذ بداية الوباء بحوالى 6 مليار دولار!

أسهُم البورصة التى شهدت انخفاضاً جماعياً فى ظل الجائحة، صبَّت فى صالح أسهم شركة أمازون التى يملكها بيزوس التى

ارتفعت ارتفاعاً متواصلاً لمدة شهرين متواصلين لتقفز ثروة بيزوس قفزة جديدة. ويقدِّر المراقبون حجم الثروة التى جمعها بيزوس أثناء الوباء أنها تكفى لشراء 188 ألف سبيكة ذهب!

أسرار يكشفها الإعلام البديل

السوشيال ميديا كانت له مزايا وفضائل أخرى ظهرت أثناء الأزمة..

فبجانب مزاياه الاقتصادية، ظهرت مزاياه الاجتماعية المتمثلة فى تحوله إلى مقهى كبير أو منتدى واسع النطاق يستوعب أفكار الناس ومشاعرهم وآراءهم بعد أن تم غلق أكثر النوادى والمسارح والمقاهى فى أغلب بلدان العالم.

اتسع نطاق استخدام وسائل التواصل الاجتماعى بشكل هائل خلال الشهور الثلاثة التى صاحبت الأزمة؛ بعد أن بات الإنترنت يمثل للبعض عملاً مربحاً، أو استمراراً للعمل عن بعد، أو بديلاً للتواصل مع الأصدقاء والمعارف، أو إعلاماً بديلاً يستقبل من خلاله معلومات لن يجدها فى أى وسيلة إعلام رسمية أخرى.

وكنتيجة للضغط المتزايد على استخدام الإنترنت، بعد ارتفاع عدد المستخدمين بفضل بقاء الناس فى المنازل. ثارت مخاوف لدى شركات الاتصالات من انهيار البنية التحتية للإنترنت بما قد يوقف عمل الشبكات.

وبرغم تحامل الكثيرين على الدور السلبي للسوشيال ميديا، فإن هؤلاء المتحاملين أنفسهم هم أكثر المستخدمين للسوشيال ميديا، وربما أكثر المستفيدين منه!

يري كثير من الخبراء أن الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعى خطر كبير يهدد الاستقرار الاجتماعى، حتى أن «دانييل روجرز»، وهو أستاذ جامعى فى جامعة نيويورك والمؤسس المشارك لمؤشر التضليل العالمى الذى يستهدف رصد ومواجهة مصادر المعلومات الكاذبة على الإنترنت، يقول «أن مشكلة السوشيال ميديا أنه يشجع الجميع للخروج من الجحور، كل محتال، كل متآمر، كل متصيد إنترنت» ويحث روجرز على أهمية وجود رقابة تترصد المحتوى الزائف والكاذب والمضلل فى وسائل التواصل.

إن تلك النظرة المتشككة ضد وسائل التواصل تواجهها محاولات أخرى من البعض لمواجهة أكاذيب الإعلام الرسمى أحياناً؛ ففى إيطاليا عبَّر عشرات الشباب عن غضبهم من الاتحاد الأوروبى الذى تخلى عن إيطاليا فى أزمتها الكبري فأحرق المستخدمون أعلام الاتحاد الأوروبي على الهواء تعبيراً عن غضبهم الشديد، ورغبتهم فى الانفصال عن اتحاد لا يقف فى صفهم عند الحاجة له. وفى أمريكا عبَّر الآلاف من مستخدمى الإنترنت عن انتقاداتهم لخطابات ترامب فى أزمة كورونا التى لم يجيد إدارتها.

يكفى وسائل التواصل الاجتماعى أنها باتت مصدراً لمعلومات وأسرار وتفاصيل لم تستطِع وسائل الإعلام التقليدية بثها.

حرب إعلامية دولية

قيل أن روسيا تتَّبع نهجاً مضللاً يتعمد بث الأكاذيب.. هذا اتهام أمريكى بالطبع!

وفى أول تصريحات ترامب حول الأزمة ضغط كثيراً على مصطلح «الفيروس الصينى» فى إشارة واضحة ترمى إلى اتهام الصين بنشر الوباء، وهو ما دفع الصين لاتهام أمريكا رسمياً ببدء حرب بيولوجية، وأنها صاغت كوفيد19 فى معاملها العسكرية، وهنا ثارت ثائرة الأمريكيين وتم استدعاء السفير الصينى لتوبيخه على اتهامات بلاده التى لا أصل لها!

تفاقمَ الأمر بعدَ أن تحوَّلت التصريحات البريئة إلى ابتزاز علَنى ودعاوَى قضائية تلاحق الصين تحت دعوَى أنها قدمت معلومات مضللة عن الجائحة أو أنها مسؤولة عن تفشى وباء كورونا. والدعاوَى تهدف لتحميل الصين فاتورة الخسائر الاقتصادية العالمية بالكامل، ولهذا وقف بومبيو وزير خارجية أمريكا معترضاً على الرد الصينى بأن الصين مستعدة لتعويض العالم بمبلغ مليارى دولار للمساهمة فى التخفف من تداعيات الجائحة فقال بومبيو: أن المبلغ تافه ولا يمثل شيئاً، وأنه لا أقل من 6 تريليونات دولار كاملة للتغاضى عن الخطأ الصينى الفادح!

إنها حرب إعلامية دولية بدأت ولن تنتهى..

بريطانيا أدلت بدلوها فى حرب التصريحات الإعلامية، عندما حذر جونسون رئيس وزرائها الصين، من أن نهجها الفردى والأنانى قد يتسبب فى عزلتها عالمياً!

بل حتى ألمانيا التى عانت من جرّاء ديون الهولوكوست، طالبت الصين طبقاً لصحيفة إكسبريس البريطانية بدفع مبلغ 149 مليار يورو هى تكلفة خسائر ألمانيا الناتجة عن تفشى الوباء، فلم تزد الصين على أن ردَّت بأن مثل تلك المطالبات تثير الكراهية العنصرية وتعزز القومية الألمانية. إنها حرب تصريحات ليس إلا..

على الناحية الأخرى توجد حرب صحفية أخرى يخوضها ترامب ضد الإعلام الأمريكي نفسه؛ حيث اتهم رئيس أركان البيت الأبيض بالإنابة (ميك مولفانى) الإعلام الأمريكي بإثارة ذعر الأمريكيين بهدف الإطاحة بالرئيس دونالد ترامب!

وهو بهذا التصريح يحاول استباق الأحداث بالتأثير المضاد على الرأى العام لإعادة انتخاب ترامب فى الانتخابات القادمة. وهى محاولة تبدو بائسة وبلا قيمة بعد أن تعددت أخطاء ترامب فى التعامل مع الأزمة وبعد ازدياد معدلات البطالة لأكثر من 15٪، وتوقعات الخبراء تصل بالرقم إلى 20٪ وقت إجراء الانتخابات، وهو ما لن يكون فى صالح ترامب وقتذاك.

على الرغم من تضرر أغلب الكيانات الاقتصادية سواءً على مستوى الدول أو على مستوى الشركات الكبري والصغرى، فإن هناك من استطاع استغلال الأزمة اقتصادياً لصالحه، أو أن الحظ خدمه للإفادة من الأزمـة؛ فإغلاق المحال الحرفية والخدمية والترفيهية مع قرارات الحظر كان يقابله انكباب الجماهير على سلاسل المحال الغذائية وعلى خدمات الإنترنت، فمصائب بعض الناس فوائد لغيرهم..

تحت عنوان:»المال العربي فى الغرب والمستقبل الغامض» أثار الشاعر فاروق جويدة فى مقال له بجريدة الأهرام تساؤلاً محورياً حول مصير الاقتصاد العربي فى أعقاب أزمة كورونا فيقول متسائلاً: «أمام ما يجرى أو ما أتصور أنه يدور فى الغرب حول خسائر كورونا وجدت هذا السؤال يطرح نفسه: ما هو مصير المال العربي فى الدول الغربية بعد كورونا؟ إننا نعلم أن معظم الثروات العربية كانت خارج أوطانها وأن أثرياء العالم العربي سواء كانوا حكاماً أو شعوباً كانوا دائماً يفضلون انتقال أموالهم إلى الدول الغربية لأنها أكثر أماناً.. «ويستطرد موضحاً: «.. فى أمريكا وحدها توجد أضخم الأموال العربية سواء لحساب حكومات أو أشخاص، وتحتل مجموعة من الدول العربية مقدمة القائمة فى السندات الأمريكية وهى تزيد عن 320 مليار دولار وهى ديون الحكومة الأمريكية لحساب دول عربية..»

ويعود جويدة للتساؤل: «.. هل تستطيع الخزانة الأمريكية سداد 300 مليار دولار ديوناً عليها للدول العربية فى السندات الأمريكية، وكيف تسددها؟»

الأرجح طبعاً أن ترامب لن يسدد شيئاً، بل ربما حاول الضغط على بعض الدول العربية لتعويض خسائره فى الأزمة. وبدلاً من سداد الديون، ربما يبتز العرب أكثر كما اعتاد أن يفعل.. وهو ما قد يؤدى إلى تفاقم خسائر الأزمة لدى العرب لاحقاً..

لاشك أن هناك انتهازيون مستعدون لتعويض خسائرهم أو تحقيق مكاسبهم بأى طريقة، وقد رأينا كيف أن دولاً أوروبية تخلت عن قناع التحضر وقامت بالسطو على مساعدات صينية فى عرض البحر دون وازع من حياء أو قانون دولى. إنها الانتهازية فى أوضح صورها.. فكيف سيقوم الانتهازيون بتعويض خسائرهم فيما بعد انتهاء الأزمة، وعلى حساب مَن؟

للكبار فقط

الإعلام بنوعيه الإقليمى والدولى بات لأصحاب الأموال والنفوذ والجاهزية فقط..

الدليل هو ما فعلته شبكة التواصل الاجتماعى «فيسبوك» مع وسائل الإعلام الأخرى، حيث أعلنت الشركة عن تبرعها بمبلغ 100 مليون دولار لمساعدة الوسائل الإعلامية التى تعانى وضعاً صعباً تفاقم خلال الوباء.

قال كامبل براون مسئول التعاون الخارجى بالشركة مبرراً هذا التصرف: «يعمل قطاع الإعلام فى ظروف استثنائية لإبقاء الناس على اطلاع على كل المستجدات المتعلقة بوباء كوفيد19، وأنه فى الوقت الذى أصبحت فيه الصحافة أكثر أهمية من أى وقت مضى، انخفضت عائدات الإعلانات بسبب الاقتصاديات المنهارة بفعل الوباء». وقد صرَّحت الشركة أن هذه المساعدات تشمل 75مليون دولار على شكل مساعدات ترويجية، و25 مليون دولار من التبرّعات العاجلة للصحافة المحلية، دون تحديد معايير واضحة لتوزيع تلك الأموال.

هل هى مساعدة إنسانية واجتماعية عاجلة وضرورة إعلامية ومهنية مُلحّة، أم أن لها أغراضاً ربحية أخرى؟ ربما تتضح الحقائق لاحقاً..

فى ظلال أزمة الإعلام

هناك أزمة إعلامية عالمية قديمة تزداد تفاقماً كل يوم، وهى مستمرة منذ عقود..

تلك الأزمة أجبرت مؤسسات إعلامية وصحفية كبري على الانسحاب من المشهد محلياً وعالمياً بسبب انعدام الأرباح ونزيف الخسائر.

وخلال وباء كورونا تضاعفَت الأزمة واتضحت معالمها بصورة أكبر.

تجلَّت خلال الأزمة عيوب إعلام يكذب أو يفبرك أو يلقى الأخبار على عواهنها دون تحرٍّ للدقة أو المصداقية أو يتبنى أجندات سياسية أو اقتصادية أو أيديولوجية أو يبحث عن ملء الفراغات بأى مادة ولو تافهة ما دامت تثير فضول المتابع ولو بالباطل والزيف!

كوفيد19 وضع وسائل الإعلام فى اختبار موحَّد، والمتساقطون فيه سيسقطون للأبد؛ إذ لا مكان فى اقتصاد ما بعد كورونا للخاسرين.

الفصل

الرابع

مؤامرة أم نبوءة؟

(لو انتشر فيروس قاتل فى العالم وأغلقت الدول حدودها وانعزلت خوفاً من الموت المتنقل، ستنقسم الأمم بالغالب إلى فئتين: فئة تمتلك أدوات المعرفة تعمل ليلاً ونهاراً لاكتشاف العلاج، والفئة الأخـرى تنتظر مصيرها المحتوم! وقتها ستفهم المجتمعات أن العلم ليس أداة للترفيه.. بل وسيلة للنجاة).

د/ مصطفى محمود

منذ 30 عاماً مضت!

نبوءات فى عصر العلم

لاشك أن السنوات الأخيرة هى السنوات الذهبية للعرافين والدجالين وأصحاب النبوءات. الناس فى خوف وهلع مما حدث ويحدث، حروب وكوارث ومصائب بالجملة.. وهناك ترقُّب وتخوف مما قد يحدث فى الغد.

لهذا يذهب الناس بمخاوفهم إلى العرافين ليشتروا الأكاذيب بالأموال. وفى مطلع كل عام تتسابق القنوات الفضائية لجلب طائفة من هؤلاء العرافين يخبطون خبط عشواء، ويتحدثون فى كل شئ، ويتنبئون بما تأتى الأيام وتكذبه كله أو بعضه.

وعندما حدث وباء كورونا عاد الناس للماضى فاكتشفوا أن هناك مَن تنبّأ بحدوث الوباء، وأن البعض منهم حددوا التاريخ الذى سيحدث فيه الاجتياح: 2020!

الغريب فى الأمر أن أكثر هؤلاء المتنبئين والمترقبين هم من العلماء والأدباء والفنانين، فكيف حدث هذا؟ ومن أين أتت لهم المعلومات أو أتى لهم الإلهام؟

الأمر محير حقاً، خاصةً وأن نظرية المؤامرة تطرح نفسها بشدة، فهل كل هؤلاء الذين تنبئوا بالواقعة مشتركون فى مؤامرة كونية ما؟

بالتأكيد لا، فكيف اجتمعت إذن هذه النبوءات على أمر واحد رغم اختلاف مصادرها؟ لابد أن فى الأمر سر..

كثيرون تنبئوا بالوباء.. فكيف عرفوا؟

منذ شهور أتت أنباء من وكالات إخبارية عالمية انتشرت على صفحات الياهو أن هناك وباء قادم، وأنه سيُسقط آلاف الضحايا خلال ساعات أو أيام!

بطبيعة الحال، وعندما مرت الأيام ولم يحدث شئ، تناسَى الناس ما قيل حتى حدث الوباء وتحقق النبأ؟ فإذا علمنا أن الذى حذَّر من هذا الوباء طائفة من العلماء، فهل تتغير دلالة الخبر؟

غير أن النبوءات الأغرب هى التى جاءت قبل الوباء بسنوات، وهى ليست نبوءات عادية، بل هى مفعمة بتفاصيل غاية فى الغرابة والغموض..

هوليود ونبوءات الوباء

عشرات الأفلام الهوليودية عالجت مسألة اجتياح الوباء، وأكثرها كان يرتبط بفكرة نهاية العالم، وأن الأوبئة القادمة سوف تقضى على أغلب سكان العالم بحرب جرثومية ملعونة تقضى على الأخضر واليابس وتترك الأرض خراباً ليس فيها إلا بضعة ألوف، وعادةً هم من الأمريكيين! أو أمريكى واحد يتبقى يبحث عن آخرين بلا جدوى، كما فى فيلم (I'm Legand) ومعناه الحرفى: «أنا أسطورة!».

أفلام هوليودية كثيرة شهيرة أخرى قديمة وحديثة صوَّرت تلك الفكرة بأكثر من شكل، لعل أشهرها سلسلة أفلام (Resident Evil) التى تم إنتاجها فى الفترة بين 2002: 2016م من ست أجزاء. وفيلم (28Weeks Later) من جزئين، تم إنتاجهما بالتتابع فى 2002، 2007. ولعل من أقدم وأشهر ما قُدِّم فى هذا الموضوع فيلم (12Monkeys) للممثل الشهير بروس ويليز، إنتاج عام 1995م. بينما كان من آخر ما أُنتج حول الفكرة فيلم من بطولة براد بيت هو (World War – Z).

تلك الأفلام السابقة لم تكن تحظَى بشئ كبير من الإقناع، لأنها كانت فى الأساس موجهة للحكام وقادة الحروب لا للجماهير؛ ولسان حالها يقول فى عنف للطواغيت المتآمرين على الإنسانية: «كفاكم جنوناً قبل أن تفنى البشرية».

على الناحية الأخرى هناك أفلام أكثر منطقية كانت تتحدث عن وباء يتفشى فى بقعة بعينها، وكيف يتم التصرف حياله من أجل احتوائه ومنع تسربه للعالم. ولعل أشهر أفلام الفكرة: (Outbreak) ومعناه، الجائحة أو الاجتياح الوبائى. والفيلم كان من بطولة داستن هوفمان ومورجان فريمان، وتم إنتاجه عام 1995م. أيضاً هناك فيلم شهير آخر هو (Quarantine) أى «حجر صحى» وهو فيلم مثير تم عمل جزئين منه بفضل نجاح الجزء الأول عام 2007م.

غير أن الفيلم الذى حظى بشهرة أوسع؛ كونه أكثر الأفلام شبهاً بما يحدث اليوم، وأن تفاصيل أحداثه تقترب كثيراً من تفاصيل انتشار وباء كوفيد19، هو فيلم تم إنتاجه عام 2011م هو: (Conta-gion) أى العدوَى..

الفيلم من بطولة نجوم هوليود: مات ديمون، وكيت وينسليت وآخرين.. وقد برَّر صناع الفيلم مدى التشابه بينه وبين أحداث اليوم بأنهم رجعوا فى معالجته لعلماء وخبراء من منظمة الصحة العالمية!

الفيلم يحكى عن وباء يبدأ من الصين، عبر خفاش يصيب خنزيراً بالوباء، وينتقل الوباء إلى بطلة الفيلم فى سوق للحيوانات بالصين، عندما يصافحها الطاهى!

وفى الفيلم أن الوباء ينتشر عبر الهواء بالعطس والسعال،أو بملامسة الأسطح الملوثة! وأن المصاب بالمرض يعانى من الحمى والتعرق والسعال والإرهاق!

ولم يبقَ إلا أن يذكروا أن الفيروس اسمه كوفيد19 حتى يتطابق المشهدان!!

أغنى الأغنياء يتنبأ بالوباء

وفق تقرير نشرته صحيفة «ذا صن» البريطانية، تحدث الملياردير الأمريكى وصاحب شركة مايكروسوفت الشهيرة «بيل جيتس» خلال مؤتمر استضافته الجمعية الطبية فى ولاية ماساتشوستس قبل

أعوام مضت، محذراً من وباء قد يجتاح العالم، وأن ذلك الخطر هو أكبر ما يتهدد البشرية غير المستعدة لمثل هذا التهديد..

وكشف الملياردير الأمريكي، الذى تتدفق عليه المعلومات من منابعها، عن دراسة شاملة قام بها معهد نمذجة الأمراض، أوضحَت مدى إمكانية سرعة انتشار وباء جديد حال ظهوره، وفى العرض المرئي ذكر كيف يمكن لوباء يبدأ فى الصين أن ينتشر فى سائر أنحاء العالم سريعاً، وقد يتسبب فى قتل نحو 33 مليون إنسان، وفقاً للدراسة!

وقد علق بيل جيتس قائلاً: «أن الاستعداد للوباء، واستشعار خطورة التهديدات البيولوجية غير موجود لدى الناس.. وعلى العالم أن يستعد للأوبئة بنفس الطريقة والاهتمام الذى يستعد به للحرب..»!!

كتب ومقالات تنبأت بتاريخ حدوث الجائحة!

فى صفحة (671) من كتاب عنوانه: (بناء الكون ومصير الإنسان) من تأليف هشام طالب، والكتاب صادر عام 2006م فى طبعته الأولى، وتحت عنوان رئيسي هو: (إرهاب المعرفة القاتلة)، وعنوان فرعى هو: (الإرهاب البيولوجى يقتل مليون إنسان عام 2020م) تقرأ هذه المقاطع:

(.. نقف لحظة مع عالم الفلك البريطانى «مارتن ريس» 1943م» الذى وضع كتاباً بعنوان: (ساعتنا الأخيرة) تم نشره عام 2003م.. فى هذا الكتاب تأكيدات لمخاوف من احتمالات فناء الكون..

ويرى ريس أن أهم الأخطار التى تهدد البشرية هى: «إرهاب نووى وفيروسات مميتة معدَّلة وراثياً وانفلات أجهزة من صنع الإنسان، وهندسة وراثية تغيِّر طبيعة البشر.. كل هذا بتدبير من أشرار، أو نتيجة خطأ بشري، غير أن العام 2020م سيكون عام «الخطأ البيولوجى» الذى يتسبب فى مقتل مليون إنسان»!!!

كتاب آخر مهم هو كتاب (الفيض) من جزئين، للمؤلف (David Quammen) ومن ترجمة د. مصطفى إبراهيم فهمى، تقرأ فى صفحتى 10، 11 من هذا الكتاب تلك المقاطع المثيرة للتساؤل:

(.. هناك من الباحثين والعلماء من يتوقعون أنه لو استمرت الأحوال البيئية والصحية كما هى عليه الآن من تخلف.. يوجد احتمال لوقوع جائحة وباء بسبب مرض جديد علينا وليس قديماً، وستكون الجرثومة المسببة لهذا المرض أيضاً غير مألوفة لنا، وغالباً من الفيروسات. هذا الفيروس الجديد لن يأتى إلينا من الفضاء المجهول، بل ستنبثق الجائحة كما يتوقعون نتيجة لفيض من العدوى بجراثيم تصل إلى البشر من حيوانات غير بشرية، كما كان الحال مع الإيدز والإيبولا والهندرا.. قد يكون هذا الحيوان أحد قرود أفريقيا، أو أحد القوارض والجرذان من الصين، أو من الخفاش فى ماليزيا. وسوف يسهل من انتشار الجائحة ما يحدث الآن من سرعة الانتقال والسفر خاصةً بالطيران، حتى أن الوباء قد ينتشر عالمياً فى ظرف ساعات.. مثال ذلك فيروس الكورونا (الإكليل)..!!!).

وفى مقالة منشورة عام 2015م فى مجلة (Nature Medicine) أكد خبراء الصين أن علماء الولايات المتحدة تمكنوا من الحصول على نوع جديد من فيروس كورونا له تأثير مباشر على الإنسان هو فيروس SHC14، والذى تم استخدامه لتطوير فيروس خميري «أى يمتلك تجمعين أو ثلاثة من الخلايا والأنسجة المعدلة جينياً للتكيف مع الإنسان»! فهل كان الفيروس المطور فى هذه التجربة هو كوفيد19؟

أفلام وثائقية تشير إلى الوباء

باحثون آخرون ينتمون لنفس المجلة «ناتشر ميديسن» أكدوا أن فيروس كوفيد19 المستجد ليس نتيجة عمل مختبر ولا جَرى التلاعب به عمداً..

وقد استندوا فى هذا التحليل لفيلم وثائقى مدته 7 دقائق لباحث صينى يُدعَى:(تياجونهوا)، الباحث فى هيئة مكافحة الأمراض فى ووهان، كان يعرض تفاصيل اصطياد خفافيش داخل كهوف فى مقاطعة خوبي..

وفى الفيلم الذى يحمل عنوان: (الشباب فى البرية، المُدافع الخفى) يتحدث تيان بطل الفيلم قائلاً: (أعمل فى مجال جمع وتصنيف عينات الفيروسات.. من بين جميع المخلوقات المعروفة، تحمل الخفافيش فيروسات مختلفة، يمكن أن تكون بعضها مسئولة

عن أمراض بشرية.. آمل أن يتم الاحتفاظ بعينات الفيروسات هذه فقط للبحث العلمى، وألا يتم استغلالها فى الواقع..!!).. لكن الواقع خذله، وحدث ما كان يخشاه..

وفى إنتاج جديد لشبكة نتفليكس سلسلة أفلام وثائقية من 6 حلقات تحمل عنواناً هو:(Pandemic:How to prevent an outbreak) تتناول انتشار الأوبئة فى الولايات المتحدة والهند وفيتنام والكونغو، وعلاقتها بالحيوانات والطيور.. وتحاول السلسلة استقصاء أسباب انتشار تلك الأوبئة بالرجوع للمتخصصين.

هكذا تنبأ العلم، وتنبأ الأدب بالوباء.. وهو أمر متكرر وقديم..

من تنبؤات أشهر العرافين فى التاريخ

هناك فيلم هوليودى آخر شهير تحدث عن مسألة التنبؤ بشكل خاص، وربط بينها وبين الكوارث التى تتوالَى على الكون، هو فيلم (Knowing) لنيكولاس كيج.. وهو يدفعنا لنتساءل عن دور الفن والأدب فى الاستبصار واستشراف المستقبل..

فالعلم والإبداع لهما قدرة خاصة على استجلاء الحقائق واستنباط الرؤى والأفكار التى تستقرئ المستقبل من خلال معطيات الحاضر..

عنوان الفيلم ترجمته الحرفية: «أن تعرف».. والبطل يصل للمعرفة فى النهاية، لكنها معرفة متأخرة، بعد أن يكون العالم قد قُدِّر له الزوال، لهذا بات الأمر سيان: أن تعرف أو ألّا تعرف!

النبوءات، صادقة كانت أو كاذبة، نذيرٌ للبشر ألا يقعوا فى أخطاء تقليدية تقود للهاوية.. والواقع يأتى ليؤكد إصرار البشر، أو بعضهم، للانتحار الجماعى فى تلك الهاوية نفسها! كأنها لعنة التفاحة المحرمة تتكرر كل يوم..

بعض تلك التحذيرات والتنبؤات جاءت على لسان قُدامَى العرّافين..

من بين هؤلاء (أورسولا سونثيل)التى اشتهرت فى يوركشاير باسم «الأم شيبتون» وعاشت فى منتصف القرن الساس عشر، فكان مما قالته فى تنبؤاتها: (العربات من دون أحصنة سوف تذهب وستحل الحوادث فوق العالم لتصيبه بالكوارث والمحن).. فأى عربات تلك التى بدون أحصنة؟ وإلى أين ستذهب؟ وكيف؟

وقد تنبأت بالتليكس والفاكس والتلفاز بقولها: (حول العالم ستطير الأفكار خلال طرفة عين). أمر عجيب، كيف ترى ما سيحدث، وكيف أصبحت هكذا ترى أشياء فى عصر غير عصرها، هذا أمر آخر وحديث مختلف..

وفى القرن العشرين اشتهرت عرافة أخـرى هى (جين ديكسون) وهى التى تنبأت بمقتل الرئيس كنيدى واثنين من أخوته.. كانت لها تنبؤات خاصة بالقرن الواحد والعشرين، ولم تكن تنبؤات سعيدة!

نبوءات نوستراداموس حتى عام ٧٠٠٠!

يقول أنيس منصور فى كتاب (القوى الخفية): (القرن السادس عشر فى أوروبا من أسوَد العصور فى تاريخ «القوى الخفية» ولذلك لم يصلنا من أعمال السحرة ومن تاريخهم إلا القليل جداً.. حتى الذى وصلنا كان غامضاً. لأن السحرة خافوا على أنفسهم، فأصدروا كتباً غامضة.. ومن بين هؤلاء الساحر الفرنسي الشهير «نوستراداموس» وكان من أشهر الذين تنبأوا بمستقبل البشرية، ولمئات السنين بعد وفاته. وقد ذهب الكثيرون من حماسهم له أنهم وجدوا فى قصائده الغامضة تاريخ الثورة الفرنسية والحرب العالمية الأولى والثانية ورحلات الفضاء وموت الملوك والرؤساء حتى القرن العشرين)...

ولد نوستراداموس عام 1503م بمدينة بروفنس الفرنسية، واسمه الحقيقى: «ميشيل دى نوسترادام» درس الفلسفة، ثم اتجه لدراسة الطب، وأنقذ كثيراً من مرضاه وقت انتشار وباء الطاعون بينما كان طالباً لأنه لم يتبع الطرق المتبعة وقتها كالفصد والحجامة. فاشتهر بين الناس، لكنه لم يرضَ عن الطرق المستخدمة وقتذاك فى العلاج فاتجه لقراءة السحر، وتزوج من سيدة ثرية، وقد اشتهر بقدرته على التأثير على الناس خاصةً النساء.. فى تلك الآونة بدأت قدراته فى التنبؤ تظهر بعد إصداره لتقويم سنوى يحوى بعض التنبؤات التى صادف أن تحقَّق بعضها..

لهذا، بدءاً من عام 1550م أقدم على تأليف سلسلة كاملة من التنبؤات تتناول الأحداث حتى عام 7000م، وقد قسمت التنبؤات إلى 10 كتب كلها مُعَنونة حسب القرون، واحتوى كل كتاب على 100 نبوءة منظومة فى شكل أشعار رباعيةغامضة.

وُجدت النبوءة الأخيرة لراسبوتين فى جيبه عند مقتله، وكانت موجهة للقيصر الروسى الذى خدم فى بلاطه، وكانت تقول: (إننى أتوقع أن أموت فى نهاية هذا العام فإن كان الذى قتلنى هم جماعة من الفلاحين، فسوف يعيش عرشك بضع سنوات.. أما إذا كان القتلة من النبلاء فلا عرش لك أو لأولادك من بعدك!) وكما توقع راسبوتين: فقد أُعدم القيصر وجميع أفراد أسرته..هكذا تنبأ راسبوتين بموعد وفاته واكتشف قتَلته بنبوءة!

جيمس بوند يتنبأ للملكة إليز بيث

قيل أن شخصية جيمس بوند الشهيرة (007) تم استقاءها من الشخص الذى تنبأ للملكة إليزابيث الأولى بموعد جلوسها على العرش!

هذا الشخص الغامض المجهول هو (جون دى) الذى عاش فى القرن السادس عشر وكان مُدرساً للهندسة والرياضيات، ومارس الملاحة البحرية، وقام بتدريس الفلك والكيمياء.. ثم وقع فى يده كتاب اسمه «الفلسفة الخفية» من تأليف الساحر الشهير أجريبا،

وكانت نقطة التحول فى حياته.. بعدها اتجه لعلوم السحر والتنجيم. وكان مما تنبأ به أن الملكة مارى ستموت، وأن الملكة إليزابيث ستعتلى العرش خلفاً لها.. وكان هذا سبباً فى سَجنه. إلا أن صعود الملكة إليزابيث على العرش جعله من المقربين لها فيما بعد.. عاش جون دى فقيراً، ومات فقيراً، خاصةً وأن هوسه بالتنجيم قاده للاعتقاد فى القدرة على مخاطبة الملائكة، وأخذته حماسته لمعرفة الغيب فى اتجاهات عديدة لا طائل من ورائها.

كورونا..

بين المؤامرة البشرية والعدالة الإلهية

هناك إحصائية مثيرة حول مصابى كورونا حول العالم، تؤكد أن أعلى عشرين دولة من حيث عدد الإصابات (حوالى 81٪ من الإصابات فى العالم) هم الدول الأغنى والأكثر ثراءً. بينما بلغ عدد الإصابات فى أفقر عشرين دولة أقل من واحد فى الألف!

كثيرون تحدثوا عن أن كوفيد19 مؤامرة تم تدبيرها بليل، وإن كانت كذلك فهى لم تضر أحداً سوى مَن صنعها وصاغها. فلا مقدرة لأى دولة من دول العالم الثالث أن تصنع وحشاً جرثومياً كهذا ولا مقدرة لهم لردعه. فكان من لطف الله وعدالته أن أقل نسبة من الإصابات والضحايا فى أفقر البلدان وأضعفها. وأن السحر لم يضر إلا الساحر البغيض الذى أوجد الشر ولم يشأ أن يصرفه، أو لعله لم يستطع.

خيوط المؤامرة تنسرج

صناعة الأدوية والعقاقير باتت اليوم أخطر من صناعة الأسلحة والطائرات..

ليس لأنها تجنى المليارات من وباء كهذا، بل لأنها تجنى من «المعلومات» ما هو أخطر وأعلى ربحاً!

في بداية سبعينيات القرن العشرين، مَوّلت شركةٌ خاصةٌ بحثًا نفذه فريق علمي وطبي في جامعة «ييل» الأمريكية، لإنشاء قاعدة لربط ما تَوَفّر الوصول إليه من البيانات المتعددة، وتمكنت الشركة فيما بعد من استغلالها، ومن بيع طريقة أو نظام جمع ومعالجة البيانات والإحصائيات، والاستفادة منها لزيادة مُستوى الأرباح، واستخدمت الشركات التجارية هذه المنظومة بهدف تقويم سياستها التبادلية للتحكم في أذواق الزبائن، وتوجيه عمليات التّسَوُّق نحو سِلَعٍ مُعينة، تزيد من أرباح الشركات، وأدّى النّفُوذ السياسي والاقتصادي لهذه الشركات إلى إنشاء قطاع تجاري ضخم، يتمثل في بيع المعلومات الشخصية لأطراف عديدة، دون الحاجة للحصول على موافقة أصحاب هذه المعلومات الشخصية، كما تَطَوَّرَ مستوى البحوث العلمية والطبية لاستغلال المعلومات الوراثية (الجينية)، التي كان هدفها المُعْلَن، في البداية، اكتشاف العقاقير الجديدة من أجل معالجة الأمراض الوراثية أو النادرة، واستغلت الشركات حجم المعلومات الضخم المُخزن في الحواسيب، والذي كان يهدف في الأساس لتحسين أداء مؤسسات التأمين الصحي، ضمن منظومة التأمين الإجتماعي، فاستحوذت هذه الشركات، بتواطؤ من

الحكومات، على سائر البيانات بهدف استغلالها واحتكارها من أجل أرباح أكثر!

في يناير 2020 نشرت مجلة «Nature Medicine» مقالًا بعنوان: «تضخم البيانات»، يشير إلى تضاعف حجم البيانات الصحية في العالم عشرة أضعاف بين عامَي2013 و 2019. ربما كانت معلومات طبية «عادية» يجمعها الأطباء والمستشفيات والمختبرات، وكذلك البيانات المقدمة من الناس، بشكل مُباشر أو غير مباشر.. لكن الأسوأ أن يتم هذا دون علمهم ودون موافقتهم.

تلك المعلومات تمثل ما يُعرَف بـ«سوق البيانات الصحية» وهي سوق مربحة تتعدَّى أرباحها السنوية 12 مليار دولار سنوياً. ولكي يمكن استيعاب مدى تعقيد وأهمية هذا السوق دعني أضرب مثلاً:

في أوروبا (فرنسا، ألمانيا، سويسرا)، نشأت شركة خاصة، تبيع الدراسات والبيانات، وتمكنت من جمع البيانات الشخصية لنحو 500 ألف مريض في جميع أنحاء العالم، بهدف إجراء البحوث المتعلقة ببعض المرضَى حول: (إدارة الألم بشكل أفضل، والنوم بشكل أفضل...). بيعت هذه البيانات فيما بعد إلى عملاء متعددين كمختبرات الأدوية، وشركات صناعة الأدوية، والشركات المصنعة للمعدات الطبية، وشركات البحوث والدراسات، وشركات تقديم الإستشارات، وشبكات العيادات والمُستشفيات الخاصة...

وفي مايو 2019، قررت المختبرات الصيدلانية الرئيسية في العالم (فايزر، نوفارتيس، سانوفي) إنشاء منصات مشتركة، تتبادل من خلالها البيانات الصحية، الوارِدَة من مصادر متعددة، من أجل تسريع البحث و«التجارب السَّرِيرِية»، ومن أجل تطوير مُشترك لأدوات البحث، في أساليب الوقاية وتعزيز الدعم، بعد المرض، بشكل يُمكّن الجميع من ربح الوقت والمال...

إن الشركات غير المرتبطة بقطاع الرعاية الصحية، مثل «جوجل» و «آمازون» و «فيسبوك» و«آبل» و «مايكروسوفت»، وغيرها، تقوم بتطوير وشراء التطبيقات، أو برامج الكائنات المتصلة التي تجمع البيانات ذات الصبغة الصحية، لاستخدامها في أغراض شتّى، فيما أنشأت شركة «جوجل» فرعها الصحي «جوجل هيلث»، (Google Health) الذي اشترى، في نوفمبر 2019، تطبيق «فتبت» (Fitbit) مقابل 2.1 مليار دولار.

الآن دعنا نتخيل نفس هذه الشركات تقوم بجمع المعلومات الصحية حول العالم عن وباء كورونا، بغرض استغلالها بالبيع والمتاجرة بعد انقضاء الأزمة! فكم تربح؟

لا تهتم هذه الشركات الكبرى بصحة الفقراء، ولكنها تستثمر في كافة المشاريع التي تجلب أرباحًا أكبر، ونادرا ما تُمَوِّلُ هذه الشركات بحوثاً ذات غرض إنساني محض.

إن النسخة الحالية من الرأسمالية الأمريكية وصلت بالبشرية إلى وضعية هي الأشد قسوة ووحشية. فمع تسارع التطور العلمي وتوفر إمكانيات توليد الثروات بلا حدود تتوحش الرأسمالية الأمريكية أكثر وأكثر.. وما صرَّح به هنرى كيسنجر وزير خارجية أمريكا سابقاً فى العديد من المناسبات وبلا مواربة عن وجوب التخلص من ثلثى البشرية من أجل الثلث الباقى، الأكثر قوة، هو أمر خطير وله دلالة، خاصةً فى ظل وباء كورونا الذى ما تزال اتهامات المؤامرة تحوم حوله وحول حقيقة صانعيه.

أمريكا فى قفص الاتهام

الاتهامات ضد أمريكا لم تكن جزافية أو انفعالية أو خالية من القرائن. ففى تقرير صدر بصحيفة «كومسومولسكايا برافدا» الروسية ونقلته عنها صحف محلية وإقليمية أكد الروسيون أن الفيروس تم تخليقه عام 2018 كبراءة اختراع تحمل رقم 10130701، وأن هناك خبراء أمريكان قاموا بتصميم محاكاة افتراضية لعملية تفشى وباء كورونا فى العالم، وأنه قد يقتل 65 مليون شخص، وأن عدم الاستعداد له وسرعة حركة التنقل قد يتسببا فى سرعة انتشار المرض.. حدث هذا قبل ثلاثة أشهر فقط من تفشى الوباء القاتل!

الغريب أن يحدث الوباء فى هذا التوقيت، وفى ووهان بالتحديد..

ففى شهر سبتمبر 2019، أى قبل الوباء بثلاثة أشهر كانت ووهان تستضيف بطولة الألعاب العسكرية، وشاركت أمريكا بقرابة 693 جندياً فى البطولة لم يحقق أحد منهم شيئاً يذكر. وهو ما يعنى أنهم ليسوا أبطالاً مدربين بل على الأرجح رجال مخابرات جاءوا لتنفيذ مهمة أخرى غامضة. وطبقاً للتسجيلات فإن هذا الوفد الأمريكي تردد كثيراً على سوق المأكولات البحرية القريب من فندق إقامتهم! وهو السوق نفسه الذى بدأ منه الوباء!!

إن ظهور الفيروس فى نهايات عام 2019 وبدايات العام الجديد، تلك الفترة التى تشهد ذروة التكدس فى الصين بسبب الاحتفالات برأس السنة القمرية، يعنى أن الاستعداد لمواجهة المرض ستكون فى أقل معدلاتها. كما أن انتشار الفيروس سيكون ملائماً مناخياً مع تزامنه مع ذروة فصل الشتاء. هذا مخطط متكامل إذن!

كل هذه القرائن وضعها الروس إلى جوار تحذيرات بيل جيتس منذ عام، والأرباح الخيالية التى حققها موقع أمازون الأمريكى فى أول دقائق لانتشار الأخبار المفزعة عن الفيروس، ليخرجوا باستنتاج واضح بأن تلك الحرب البيولوجية استهدفت بها أمريكا الصين فى إطار حرب تجارية مستمرة فشلت فى تحقيق أهدافها سابقاً، فكان الحل هو الوباء الذى سيقضى على الاقتصاد الصينى.

غير أن الذى حدث لم يكن فى الحسبان بعد أن خرجت الأمور تماماً عن السيطرة.

الصين أيضاً متهمة

رغم أن أكثر أصابع الاتهام فى الضلوع بنشر الوباء القاتل تشير إلى أمريكا، إلا أن إصبعين أو ثلاثة من هذه الأصابع تشير إلى الصين، بخلاف أصابع أخرى حائرة لا تدرى إلى مَن تشير. بينما الأكف جميعها تتجه إلى السماء تتضرع وتخشع.

الصين ليست فى مَنأى عن الاتهام لأسباب شتى..

أولاً: أن مدينة ووهان الصينية التى بدأ فيها الوباء من أهم القواعد العسكرية لتصنيع السلاح فى الصين، وبها المختبر الوحيد المؤهَّل للكشف عن الوبائيات الكبري مثل كوفيد19 أو غيره، الأهم من هذا وذاك، أن هذا المختبر بالذات يقع إلى جوار سوق المأكولات البحرية الذى وقع فيه الوباء.

ثانياً: أن الصين حققت إمكانيات علاجية استثنائية لم تتحقق لأى دولة أخرى، والأرقام الخاصة بالمصابين والوفيات لديها نادرة، فهل تملك مصلاً أو لقاحاً سابق الإعداد؟ إن المنطق يقول أن الدولة التى ستبدأ حرباً بيولوجية هى بالضرورة الدولة التى تملك علاجاً أو لقاحاً للجرثومة التى نشرتها، وإلا فهى تنتحر مع عدوها بمنطق «علىَّ وعلى أعدائى»!

ثالثاً: أن مختبر ووهان المشار إليه (مختبر السلامة البيولوجية – p4) شهد تعاوناً مع الجانب الفرنسي منذ 2017م، وكان الغرض بدء

تشغيل المختبر للأبحاث البيولوجية شديدة التطور كامتداد لاتفاقية وقَّعتها فرنسا مع الصين فى 2004م وتم تعديلها فى 2006م للتعاون بين الجانبين فى مجال الدفاع البيولوجى، ويشمل هذا التعاون تعميق الروابط وتبادل الأبحاث بين معهد باستير الفرنسي ومعهد باستير فى شانغهاى. فهل كانت تلك المنظومة مخصصة للدفاع فقط؟

إن معامل تطوير السلاح البيولوجى منتشرة بين دول العالم المتقدم، والسؤال الذى يلح على أذهان الناس الآن هو: هل هو سلاح بيولوجى؟ وإذا كان كذلك، فلماذا لم يظهر علاج أو لقاح مضاد حتى الآن؟

ماذا إن كانت مؤامرة؟

العالم كله، قادته وشعوبه وحكامه وساكنوه، يوقن أن فى الأمر سر، وأن نظرية المؤامرة تفرض نفسها على المشهد. لكن العالم لم يعد يسأل، ولا تهمه الإجابة..

قد تكون الصين أو أمريكا أو كلاهما معاً، أو ربما أطراف كثيرة مشتركة فى المؤامرة معاً، ما الذى يمثله ذلك من فارق؟ لقد انتشر الوباء ولا سبيل لإيقافه إلا بالتوصل إلى لقاح مضاد.. إن العالم الآن غضَّ طرفه عن قضية البحث عن متهم لأنه مشغول بالبحث عن طريقة لوقف الوباء بأى ثمن.. وإذا كانت عائلات المافيا الإيطالية قد تبرعت للحكومة الإيطالية للإسراع بابتكار لقاح مضاد

للوباء كما قيل، فإن العالم غداً سيدفع مليارات لمن يحقق هذا الهدف الذى تتسابق لتحقيقه سائر الحكومات ومعامل الأبحاث وشركات الدواء والتبغ!

وفى كل الأحوال، فإن الأقدار لها تدبير آخر.. والإرادة الإلهية تعلو فوق كل الإرادات.. هذا ما أثبته الواقع مهما كابروا.

صناعة الأوبئة وحروب الجرائم

كل التكهنات والتنبؤات بحدوث الوباء، برغم كل شئ، ليست دليلاً أو برهاناً دامغاً على أن كورونا جزء من حرب بيولوجية. حتى أقاويل بيل جيتس، أو فيلم كونتاجيون، أو تحذيرات العلماء..

السبب أن السيناريو الذى حدث فى ووهان الصينية عام 2019م، هو مشهد مكرر حدث مثيله بحذافيره عام 2003 مع وباء سارس.. ما يعنى أن تحذيرات العلماء والتنبؤات مجرد تخوفات من تكرار مشهد سارس، وهو ما حدث بالفعل!

فى هذا العام اجتاح وباء سارس عدداً من الدول كسنغافورة وفيتنام وتايلاند وتايوان وكندا، بالإضافة للصين التى بدأ منها المرض «غير المعروف» آنذاك.

والذى جعل الوباء ينتشر سريعاً فى هذه الدول أنه ظل مجهولاً غير معروف السبب، ويتم التعامل معه باعتباره التهاب رئوى عادى. وإلى حين تشخيص المرض وفصل الفيروس المسبب له، كان المرض قد تفشى بالفعل، وكان عليهم أن يتتبعوا الإصابات الكثيرة جداً، فى عملية شاقة ومعقدة ليصلوا إلى الحالة رقم صفر، والتى بدأ منها المرض. واتضح أنها لتاجر مأكولات بحرية

اسمه «جو زوفنج»، وأنه كان من نوع «الناشر الفائق – super-infective» وهو تعبير اصطلاحى يعنى أنه ليس من أصحاب العدوى النمطية، فمعدلات العدوى لديه فاقت الرقم الحسابي الذى يعبر عن متوسط عدوى آمن. وأنه عندما كان يُعالَج فى حجرة العمليات لإدخال الأنبوب التنفسي له حدث تدفق دموى مخاطى تناثر فى الأرجاء وتسبب فى عدوى 23 طبيباً وممرضة. وأنه قبل ذلك تسبب فى عدوى نحو 20 من المحيطين به.لدرجة أن أعضاء الهيئة الطبية لقبوه بملك السم. وفى حين مات أكثر الذين أصابتهم العدوى بسببه إلا أنه نجا من الموت. وكان من بين المصابين بالعدوى وقتها طبيب يقطن فى أحد الفنادق، وتسبب السعال والعطس فى إصابة سيدة كندية كانت هى السبب فى نشر العدوى فى كندا!

تلك الأحداث كانت السبب فى الهلع الذى أصاب الجميع وقتها من إمكانية تكرار مثل هذا السيناريو، لكن بصورة أكبر وأعنف. ولهذا صادفَ أن جاءت الأحداث مطابقة للتوقعات والتنبؤات التى استندت فى الأصل لوقائع قديمة وأحداث سابقة تناساها العالم واهتم بها العلماء وحدهم..

هل من الممكن بعد كل هذا الهلع والخوف الذى تعرَّض له العالم آنذاك أن تتورط الصين أو أمريكا فى حرب بيولوجية مفتوحة؟

التاريخ يجيب، ويقول نعم.. من الجائز جداً أن تقوم دولة بمثل هذه الحماقة رغم كل شئ، وأن تاريخ أمريكا وغيرها مع الحرب البيولوجية حالك السواد..

يعود تاريخ الحرب البيولوجية إلى ما قبل الميلاد، لكنها كانت فى أغلب الأحوال فى إطار الحروب التقليدية المحدودة.. الآشوريون مثلاً وضعوا فطراً ساماً فى آبار المياه الموصلة لأعدائهم، والمغول كانوا يلقون بجثث موتاهم وموتى أعدائهم فى مياه الأنهار لتلويثها من أجل الفتك بأكبر عدد ممكن من الناس.

ورغم توقيع الدول الكبري عام 1925 لاتفاقية جنيف التى منعت اللجوء للأسلحة الجرثومية فى الحروب، كانت الولايات المتحدة أول الممتنعين عن التوقيع عليها. وقامت بريطانيا وأمريكا بالتفكير فى خطة لم توضع فى إطار التنفيذ لإلقاء قنبلة بوزن 200 كجم على قطعان المواشى فى البلدان المعادية، حتى تتولى الماشية عنهم مهمة القتل العشوائى للأعداء، سواءً محاربين أو مدنيين!

بل إن بريطانيا قامت بإجراء تجربة لسلاح بيولوجى فى اسكتلندا بجزيرة جرونارد فى عرض البحر، وبقىَ الوباء بالجزيرة لا يغادرها، وظلت جزيرة مهجورة محرمة.

وفى عام 1952م واجهت أمريكا اتهامات باستخدام أسلحة بيولوجية ضد كوريا الشمالية، فأنكرت كالعادة، ثم وضعت قائمة اتهامات طويلة تضم 17 دولة متهمة بامتلاك وإنتاج الأسلحة البيولوجية! وعادت لاستخدام هذا السلاح البغيض فى حربها مع فيتنام عام 1960م.

حتى اليابان تم اتهامها باستخدام الحرب البيولوجية ضد الصين، فقامت الفرقة 731 بنشر ميكروب الكوليرا فى آبار المياه الصينية.

إن كلمة حرب إذا قيلت، وضَع أمامها الجبابرة والساديون كل ما فى جعبتهم من شرور، لا فرق بين سلاح ينتقى أو يتفشى بين الناس، يقتل ألفاً أو مليوناً ما دام بين المليون ألفاً من الأعداء!

أسهل الحروب وأسوأها

المسألة لا تحتاج سوى معمل مجهز، وعينة جرثومية، وطبيب متخصص. لتتم صناعة سلاح بيولوجى قادر على إهلاك سكان مدينة كاملة تعج بملايين السكان.

لكن صُناع هذا السلاح كثيراً ما يُخطئون، والخطأ يصيبهم هم قبل أعدائهم. كما حدث عام 1978م من انتشار بكتريا الجمرة الخبيثة فى أحد المنشآت الروسية، واعترف بوريس يلتسن 1992م بأنها تجربة فاشلة لتطوير سلاح بيولوجى.

الأسوأ من هذا أن يتم تصنيع وتجريب ونشر جرثومة دون وجود حرب ولا غرض ولا هدف سوى تجريب فاعليتها فى التدمير. فلا سلاح يتم اعتماده سوى بتجريبه.

إن عالم البيولوجيا الألمانى جالوب سيجال قد أكد أن فيروس الإيدز تمت صناعته في أحد المعامل البيولوجية العسكرية في «فورت ديريك» بمريلاند، عن طريق دمج نوعين من الفيروسات هما فيروس HTLV – 1 وفيروس Visna. وهو ما أكدته الدكتورة «فاجناري مآثاي» الحاصلة على جائزة نوبل للسلام!

الموتَى يثأرون

أمريكا وبريطانيا وأسبانيا هم من بين أكثر البلدان تأثراً بالوباء. فهل هو ثأر الزنوج والعبيد والهنود الحمر وشعوب الأزتك من سكان الأمريكتين الأصليين.

إن أشد الإحصائيات ترفقاً ودبلوماسية تقول أن الأوبئة التى نشرها البريطانيون والأسبان بين السكان الأصليين فى الأمريكتين لإبادتهم والاستيلاء على أراضيهم، أبادت ما لا يقل عن نصف السكان، فيما قضى البارود على نصفهم الباقى!

كأن أرواح هؤلاء تلبست بجرثومة، لتثأر لملايين القتلى والموتَى بلا ذنب عبر التاريخ! هؤلاء الذين قتلهم الطغاة، وسكت عنهم العالَم.

دراما كورونا..

بين التراجيديا والكوميديا السوداء

عشرات القصص والحكايات فاضت بها الصحف والفضائيات ووسائل الإعلام والميديا يومياً وهى لا تمثل إلا قطرة فى بحر من المآسى والمفارقات حول العالم بسبب الجائحة.

أبطال تلك القصص من كل الفئات والأعمار والشخصيات، نجوم وزعماء وأطباء وممرضات وأطفال وعجائز ورجال أعمال وفقراء ومستغلين وكرماء. مسرح عالمى ضخم يعرض بشكل يومى حكاية الإنسان واللاإنسان.

الإنسانية بمواجهة استراتيجيات القطيع

كان أكثر ما أثار الجدل الإعلامى والفلسفى تلك السياسة السلبية المخيفة والاستراتيجية معدومة الإنسانية المسماة «سياسة مناعة القطيع». ورغم ذلك تبناها عدد من زعماء الدول الأوروبية دعاة التقدم والتحضر والرقى!

تقضى تلك السياسة بجعل الطبيعة تأخذ مجراها! فينتشر الوباء ما شاء له أن ينتشر، ويموت مَن يموت، ويعيش مَن يعيش، على اعتبار

أن لكل مرض دورة زمنية تنتهى تلقائياً، ثم يتم إحصاء الخسائر وتهنئة الناجين! الغرض من تلك السياسة الغريبة هو تحقيق فكرة البقاء للأقوى، حيث ينجو فقط مَن يستطيع أن يقاوم المرض، وهو ما يجعل تلك البلد التى اتبعت مثل هذه السياسة محصنة ضد ذلك الوباء لعدة سنوات قادمة!

هناك منطق فى هذه السياسة، لكنها سياسة أنانية فوقية تعلن باختصار: «أنا ومن بعدى الطوفان»، فالسلطة هنا سيعنيها فقط أن تحمى نفسها من الوباء، فيما تترك الشعب يواجه مصيره وحده.

بالطبع تمثل تلك السياسة انتحاراً جماعياً مع وباء مثل كورونا، لهذا لم ينادى بها كثيرون.. ثمة دول أخرى أمسكت العصا من المنتصف، كالسويد مثلاً.. فبعد شتاء اسكندنافي طويل ومظلم وبيات شتوى قسري، ورغم تفشي كورونا في أوروبا، فإن السويديين رفضوا البقاء في منازلهم. حتى في الوقت الذي يحجز فيه المواطنون في أجزاء كثيرة من العالم أنفسهم طوعا وكراهية في أماكنهم. لقد نصحت السلطات السويدية المواطنين بممارسة «البعد الاجتماعي» و«العمل من المنزل»، إن أمكن، وحثت أولئك الذين تزيد أعمارهم على 70 عاما على العزل الذاتي كإجراء وقائي. تلك نصائح وإرشادات لا أكثر، فالدولة لا تريد إزعاج الناس أو فرض شئ عليهم. لهذا فمقارنةً بعمليات الإغلاق الإجبارية والعزل في أماكن أخرى من العالم،

فإن الحكومة السويدية تبدو أكثر مرونة وتساهلاً وربما بسبب هذا التساهل وصل عدد الإصابات بها إلى نحو 21 ألف حالة، والوفيات لحوالى 2500وفاة.

دواء للديدان يقتل الوباء فى ٤٨ ساعة!

أكثر الأخبار عُرضةً للشائعات والتأويلات هى الأخبار المتعلقة بعلاج كورونا..

فبينما تلحّ منظمة الصحة العالمية أن فيروس كورونا لا علاج ولا لقاح له، وأن العلاجات واللقاحات فى طَور التجريب والاختبار، وربما يتوافر لقاح فى غضون شهور. لكن الناس لم تعد تعبأ بتصريحات المنظمات العالمية، كما لم تعد تصدق تصريحات الرؤساء والمسئولين؛ لاسيما وقد أخفقت وصفة ترامب العلاجية (مزيج الكلوروكوين والأزيثرومايسين) فى علاج الناس، بل وتسببت فى هلاك البعض!

السباق الآن على أشده بين شركات الدواء للتوصل إلى لقاح فى القريب العاجل، وأكثر التجارب اقتراباً من إحداث نتائج هى تلك التى تتعلق بالأجسام المضادة فى بلازما أولئك الذين نجوا من المرض واستطاعوا مقاومته؛ إذ أن مثل تلك المضادات الطبيعية تمثل طريقة لتحفيز الأجسام على الإسراع بتوليد جسيمات مناعية قادة على تعطيل الفيروس أو إهلاكه.

وإلى جانب المحاولات الرسمية لوزارات الصحة فى كل العالم، وإلى جانب شركات الأدوية العالمية، اقتحمت شركات التبغ السباق وأعلنت أنها بصدد إنتاج لقاح قريب يعتمد على مشتقات من نبات التبغ!

الصين حينما سئلت عن طريقة العلاج المتبعة قالت أنها استخدمت علاجاً دوائياً تقليدياً لعلاج الأعراض كالمضادات الحيوية والمسكنات ومضادات الإسهال وخوافض الحرارة إلى جانب تعزيز المناعة بالأدوية والنظام الغذائى المناسب. قالت أيضاً أنها لجأت لطب الأعشاب الذى برعت فيه، وأنها استخدمت مزيجاً فعالاً من نبات العرقسوس والإفيدرا، وكلاهما اشتهر استخدامه لديهم لعلاج الحمى والزكام.

وقد أعلنت الصين ودول أخرى فى أواخر شهر أبريل عن تطوير لقاحات تجريبية لعلاج كورونا، وربما تبدأ إحدى هذه الدول قريباً فى طرح اللقاح المنتظَر. ولاشك أن الدول سوف تتسابَق على نيل أول كمية من هذا اللقاح الافتراضى.

المحاولات الجادة الأولى أكثرها انصبت على إيجاد علاج من بين الأدوية واللقاحات الموجودة بالفعل إذ لو وجد مثل هذا العلاج سوف يختصر على المتخصصين شهوراً من الأبحاث والتجريب والإنتاج. آخر تلك العلاجات المقترحة هو دواء مضاد للطفيليات والديدان والجرب هو (إيفرميكتين) وهو دواء آمن وبسيط ليست

له أضرار جانبية خطيرة كدواء ترامب. وقد نقلت قناة الحرة عن موقع (7news) الأسترالى أن دراسة لمعهد الطب الحيوى فى جامعة موناش الأسترالية أكدت أن هذا الدواء قادر على التغلب على الفيروس خلال 48 ساعة، حيث يوقف نمو خلايا الفيروس بجرعة واحدة! والغريب أن الدواء البسيط رخيص التكلفة قادر على إزالة فاعلية الحمض النووى للفيروس وشل قدرته على الانقسام وإحداث أضرار فى غضون يومين، فيقضى عليه بسرعة وبأقل جرعة.

جدير بالذكر أن معدلات التعافى فى استراليا وصلت إلى نحو 80٪ أو أكثر! فهل لهذا العلاج المزعوم دور فى تحجيم الإصابات هناك؟!

الأمل الآن معقود على مختبرات ومعامل شركات الدواء والجامعات والمؤسسات البحثية المتخصصة للتوصل لعلاج نهائى قوى يقضى على الجائحة قبل أن تتفاقم أو تعاود هجومها من جديد.

بطل اليونان طبيب

إنه مواطن عادى استطاع إنقاذ بلاده من مصير مشابه لمصير إيطاليا المجاورة لليونان. يلقبونه الآن بلقب «منقذ الأمة» لأنه أجبر وزارة الصحة فى بلاده لاتخاذ إجراءات صارمة وسريعة، وألا يتساهلوا كإيطاليا.

هذا الرجل اسمه (تسوتريس تسودراس) أب لسبعة أطفال، متخصص فى علم الأوبئة، وبمجرد أن سمع عن أول إصابة فى إيطاليا

سارع بالدعوة لغلق البلاد، ووضْع خطة لإجبار البلاد لاتخاذ تلك الخطوة؛ حيث جمع حوله عدداً من الشخصيات المؤثرة فى المجال الصحى وبمبادرة من تسودراس، جرى إنشاء غرفة عمليات مبكرة مكونة من 26 عالما، وتم إعداد 13 مركزا طبياً، رغم أن إيطاليا لم يكن بها إلا 11 حالة وفاة فقط و330 مصابا، ولم يكن الوضع حرجاً بعد.

في 26 فبراير 2020، تم تسجيل أول حالة في اليونان في مدينة سالونيك، لامرأة قادمة من شمال إيطاليا. وعلى الفور تحركت السلطات، وأغلقت المدرسة التي أصيب فيها الطفل ابن المرأة المصابة، وتم وضعهما في بالحجر الصحي. وفي 27 فبراير تم توقيف المدارس، والمهرجانات الجماعية، والكرنفالات، ثم طالب تسودراس بإجراءات مشددة، واستجابت على إثرها السلطات، وبدأت في تطبيق الحجر الصحي العام، وتم إغلاق كل شي ما عدا الصيدليات ومحلات البقالة. وبفضل مبادرة هذا الرجل باتت اليونان من أقل البلدان إصابة فى أوروبا. إذ لم يتعدّ عدد الإصابات بها حتى آخر مايو 2915 إصابة، والوفيات 175 وفاة.

زلات الملوك

وفيما رأينا الأطباء والعلماء أبطالاً يقودون السفينة نحو شاطئ النجاة فى تفانٍ وإيثار. شاهدنا زعماء يسقطون فى امتحان كورونا وعلى رأسهم ترامب.

طريقته فى التعامل مع الوباء أثارت عاصفة من الغضب لم تنتهى إلا لتبدأ؛ بدءاً من تأخره فى مقاومة تفشي الوباء، ومروراً بتصريحاته المثيرة للجدل وانتهاءً بسقطاته وقراراته المتخبطة. فبسبب تأخر ترامب فى الاستجابة لتداعيات الوباء تفشى المرض بسرعة خلال شهر واحد لتقفز الإصابات بالولايات المتحدة إلى ربع مليون، وتتصدر قائمة الإصابات فى العالم. كما أن تأخره فى الاستجابة للسفينة زاندام وحاملة الطائرات روزفلت أدى لتصاعد عدد الإصابات وزادت الوفيات، كلها أشياء لم تصبّ فى صالحه فى أى مؤتمر صحفى. لهذا خرج نائبه يتهم وسائل الإعلام بمحاولة النيل من ترامب لإسقاطه فى الانتخابات التجديدية المقبلة.

وقد أشيع أن ترامب يتبع سياسة مناعة القطيع، وهو ما جعل الأرقام تقفز لديه إلى أرقام خرافية. وكان من آخر تصريحاته الصادمة دعوته لإيثار الشباب بالعلاج، وترك العجائز يواجهون مصيرهم، وهى من بين سياساته لتقليل التكاليف، تحت دعوَى أن «الاقتصاد الوطنى الأمريكى هو الأولوية الأولى الآن»، فلا إنسانية ولا اكتراث للضحايا، وإنما فقط الدولار واحتياطى الذهب هما الأولَى عند ترامب!

لم يكن ترامب وحده مَن أثار الجدل الإعلامى من الزعماء، فقد صرح الرئيس البرازيلى جاير بولسونارو بتاريخ 11 مارس، أى فى بداية الأزمة، أنه يتشكك فى كل ما يثار إعلامياً حول كورونا، وأن

القضية كلها مجرد فبركة إعلامية! ونقلت وسائل إعلام برازيلية عن الرئيس بولسونارو قوله: «من الواضح أن القضية موجودة، لكنها غير كبيرة. وكما أتصور، فإن هذه القصة المتعلقة بفيروس كورونا افتراء إلى حد كبير. والأمور ليست كما تروج لها وسائل الإعلام في العالم». وبرغم هذا المنطق الإنكارى انتشرت فى وسائل الإعلام البرازيلية صور لمقابر جماعية يتم حفرها للوفيات المحتملة بالبلاد فى إطار الاستعداد للوباء الذى أصاب عدة بلدان فى أمريكا الجنوبية والوسطى، حتى أن البرازيل باتت الآن رقماً ثانياً بعد أمريكا من حيث الإصابات، وهى مرشحة لتصبح بؤرة رابعة للوباء بعد الصين وأوروبا وأمريكا.

ومن أصحاب النزوع للإنكار رئيس كوريا الشمالية الذى أكد خلوّ بلاده من أى إصابات رغم رصد بعض التحركات المريبة بالبلاد والتى تشى بإصابات يحاولون إنكار وجودها. وبسبب اختفائه عن الأنظار لعدة أسابيع تعرّض لشائعة كاذبة عن احتمالية وفاته.

وجاءت أكثر تصريحات زعماء أوروبا لتشير بوضوح إلى مدى الأنانية والارتباك لدى معالجتهم لأزمة الوباء. خلاف الرؤساء الذين واجهوا الأزمة بقوانين صارمة كالرئيس بوتين، إلا أن قوانين وتصريحات الرئيس الفلبينى (رودريجو دوتيرتى) كانت هى الأكثر صرامة وحِدّة، إذ خرج على شعبه ليقول: «إنني أُخطركم مرة أخرى

بخطورة المشكلة وعليكم أن تنصتوا.. أوامري للشرطة والجيش هي أنه إذا كانت هناك اضطرابات، ورأيتم أن حياتكم في خطر جراء مواجهتهم لكم، فاقتلوهم رمياً بالرصاص»!

المرأة والطبيب والشرير

فى خضم الأزمة ظهرت معادن الناس..

ففى حين انتشرت صورة باتت فى غضون ساعات كالأيقونة العالمية، بين زوجة وزوجها الطبيب الصينى يرتديان كمامة وعيناها دامعتان بينما يحاول هو إقناعها بالصبر وبضرورة تلبية نداء الواجب وهى تغالب دموع الفراق الصعب..

وانتشر خبر آخر مدعوم بمجموعة صور مؤثرة: عن زوجة صينية وفية تُدعَى «هوانج جوجى» عمرها 84 سنة احتُجز زوجها البالغ من العمر 90 عاماً فى مستشفى محظور على الزائرين بسبب وجود مرضى كورونا به. وظلت الزوجة، وبرغم معاناتها من مرض تنفسي مزمن تواظب على مدى 55 يوماً على القدوم بطبق من الفاكهة المفضلة لزوجها وبرفقتها خطاب، حتى بلغت خطاباتها المتشوقة لرؤياه نحو 45 يوماً، ثم جاءت لحظة اللقاء التى التقطتها الكاميرات.

على الناحية الأخرى انتشرت فى بدايات الأزمة فى يناير مقاطع فيديو عن مصابين يتعمدون السعال فى وجه الأصحاء! بل

إن هناك خبر عنوانه: «جريمة سعال فى سوبر ماركت والخسائر 35 ألف دولار» والخبر جاء فى ياهو مكتوب نقلاً عن الإمارات اليوم، وفى تفاصيل الخبر:(أن سيدة فى ولاية بنسلفانيا الأمريكية أقدمت على تصرف غير مسؤول، ومؤسف، داخل أحد المتاجر الغذائية، استدعى إلقاء القبض عليها.وأعلنت الشرطة أن السيدة «سعلت عمدا» في مواد غذائية بقيمة 35 ألف دولار في محل بقالة في بنسلفانيا، وقد تواجه اتهامات جنائية بسبب تلك الفعلة)..وفى بريطانيا انتشرت لقطة على وسائل التواصل الاجتماعى لمواطن من ويلز يُدعَى «جوليان بايليس» يحتضن ابنته فى لهفة، وخلفه سيارة مغطاة بالأعشاب والحشائش، وكان قد أخبر ابنته أنه في رحلة لأفريقيا، رغم أنه كان يسكن في سيارة تبعد عن بيته 275 متر فقط حيث عزل نفسه فيها. وبعد مدة من العزل وشفائه من الفيروس نهائياً عاد لبيته وابنته التى احتضنته فى لهفة بطريقة درامية أثارت مشاعر الناس.

على النقيض من هذه العاطفة النبيلة الجياشة جاء خبر آخر فى صحيفة ديلى ميل البريطانية حول جريمتى قتل لرجلين قتلا زوجاتهما خلال قضاء فترة الحجر الصحي بالمنزل، أحدهما جندى بريطانى سابق! وخبر آخر عن زوج ألقَى بزوجته من الدور السابع! وكان بعض الخبراء النفسيين قد حذّروا أن الحظر المفروض والبقاء

في المنزل لفترة طويلة سوف تنتج عنه جرائم أكثر خطورة نتيجة التعرض لخطر العنف المنزلي.

والحق أن الأثر النفسي للوباء كان شديداً متسع النطاق، وظهر أكثر فى القطاع الصحى، فقد انتشرت صورة لطبيب فرنسي يعترف باستسلامه وعدم قدرته على مواصلة رؤية مَشاهد الفراق المؤلمة اليومية التى تتابعَت أمامه خلال أيام، وأن من أكثر المشاهد إيلاماً له رجل عجوز كان يحتضر بسبب إصابته بالفيروس، وطلب رؤية أولاده قبل أن توافيه المنيّة، فقام الطبيب بمهاتفتهم ليُفاجأ برفضهم زيارته خوفاً من العدوَى، فمات وحيداً بالمستشفى ومثله كثيرون. هذا الطبيب اضطر للجوء للعلاج النفسي بعد حصوله على أجازة قصيرة من عمله المرهق.

تلك المشاهدات تكررت فى إيطاليا وأمريكا.. ففى حوار أجرته صحيفة ديلي ميل مع ممرضات بمستشفى بنيويورك قالت إحدى الممرضات فى تأثر: «الكثير من الناس يموتون بمفردهم ولا يوجد أحد من أفراد العائلة من حولهم على الإطلاق، إنه أفظع ما يحدث». رغم أن الأفظع منه أن هذا الطاقم الطبي نفسه يواجه الموت يومياً عشرات المرات فى شجاعة وتجرد. لقد كتبت طبيبة أمريكية رسالة وداع مؤثرة إلى أطفالها في حال أصيبت بسبب المرض الذي تعمل على مدار الساعة لمواجهته، وقد نشرت الطبيبة «كورنيليا جريجز»،

المتخصصة في مجال جراحة الأطفال، صورة لها عبر حسابها على موقع التواصل الاجتماعي «تويتر»، وعلقت على هذه الصورة قائلة إن أطفالها مازالوا صغارًا، ولا يمكنهم قراءة هذه الرسالة في الوقت الحالي، لكن في حال فقدوها بسبب فيروس «كورونا»، فإنها تريدهم أن يعلموا أن والدتهم حاولت جاهدة القيام بعملها.

ابتسامات بطعم الألم

يبدو أن غريزة البقاء داخل كل إنسان تنضح فى مثل تلك الأوقات لدى الناس، كلٌّ بطريقته..فقد قام ملك تايلاند الحالي، الملك ماها فاجيرالونج كورن بعزل نفسه في فندق فاخر في مدينة جارميش – بارتنكيرشن في جبال الألب مع حاشيته، وفقاً لصحيفة «إندبندنت» البريطانية. وحجز الملك فندق جراند زوننبيخيل من فئة الأربع نجوم بالكامل بعد أن حصل الفندق على إذن من مجلس المقاطعة لاستيعاب حاشيته..وشملت حاشية الملك البالغ من العمر 67 عاما مجموعة من النساء، منهن 20 من محظياته والعديد من الخدم، ولم يكن من الواضح ما إذا كانت زوجاته الأربعة يعشن معه في الفندق أم لا! وقد قضى الملك أسبوعين بالفندق ثم عاد إلى قصره بعد انتهاء مدة العزل.

مثل تلك الأخبار يتناولها الناس بطريقة التندر والتفكُّه لنسيان لحظات الخوف والترقب والألم والقلق وضغوط الحياة.. وقد لاحَظ الناس حول العالم أن حظّ المصريين من عاطفة الفكاهة أكثر

مما لدى غيرهم من شعوب العالم. ولا أدلَّ على هذا من أبيات أشعار ادَّعى أحدهم، ربما على سبيل التندر، أنها لأبى على الدبيز ت565 هجرى فى كتاب عظائم الدهور، وحرص على جعل ألوان الصفحة توحى بالقدم، ثم أمهرها بخطوط وعلامات إمعاناً فى الإقناع.. والصفحة بها ما يبدو كأنها أشعار معبرة عن حالنا اليوم فى الوباء (وكأنها نبوءة قديمة من مئات السنين).. وتقول الأشعار: (عندما تحين العشرون.. قرونُ وقرونٌ وقرون، يجتاح الدنيا كورون.. من فعل البشر الضالّون، فيميت كبارهم.. ويستحيى صغارهم. يخشاه الأقوياء، ولا يتعافَى منه الضعفاء. يفتك بساكنى القصور. ولا يسلم منه ولاة الأمور.. يتطاير بينهم كالكرات، ويلتهم الحلقومَ والرئات. لاتنفع معه حجامة، ويفترس مَن أماط لثامه. يصيب السفن ومَن فيها.. وتخلو السحب من راكبيها. تتوقف فيه المصانع، ولا يجدون له من رادع. مبدؤه خفاش الصين.. وتستقبله الروم بالأنين. وتخلو الأماكن من روادها، وتستعين الأقوام بأجنادها، يضج منه روم الطليان.. ولا يشعر مَن جاورَهم بأمان. يستهينون بأول اجتياحه.. ويأس طبهم من كفاحه.. يتناقلون بينهم أخباره، ويكتشفون بلا نفعٍ أسرارَه. يخشاه الأخيار والفساق.. ويدفنون ضحاياه فى الأعماق. تتعطل فيه الصلوات، وتكثر فيه الدعوات. وتصدّق الناس ما يشاع.. وتشترى كل ما يباع. ممالك الأرض منه فى خسارة، تعجز عن محاربته وانحساره. فى زمانٍ قلَّ الصدق فى التعامل، وشحَّ

الإحسان فى المقابل. ثم تنكشف الغمة عن الأمة.. بالرجوعِ إلى الله تأتى التتمّة. وتستنير الضمائرُ المستهمة.. بالتضرع إلى الله والصلاة على الأنبياء والأئمة).

إنها أبيات مكتوبة بطريقة المقامة المعتمدة على السجع، وقد بدا مما فيها من أخطاء نحوية قليلة، وما تعج به من ألفاظ وأسماء معاصرة لا يصح أن توجد فى ذلك بطريقة فيها من الدهاء بقدر ما فيها من الطرافة، أكد المتابعون أنها مجرد مزحة.

ويبدو أن الفراغ أشعل القرائح وشجع على الابتكار. ولا بأس بالابتسام وبث التفاؤل فى ظل أخبار مفزعة تتوالَى وتُنهك الأنفس والقلوب.

لقد كان من طرائف ما جاء فى إذاعة الأغانى المصرية، أن الفاصل الذى انتقوه لمختارات الأغانى كان فاصلاً للمطربة اللبنانية فيروز من أغنيتها الشهيرة: «الله يخليك.. خليك بالبَيت». والتى لحَّنها وألَّفها ابنها زياد الرحبانى. وكان المقصود فى الأغنية أن يجالس الابن أمه التى تشعر بالوحدة فى غياب الأب. غير أن المقطع تم استغلاله لدعوة الناس للمكوث فى بيوتهم تنفيذاً لقرارات الحظر والعزل.

هذا وقد ظهرت المطربة فيروز بوسائل الإعلام، وصرَّحت بأنها تدعو وتصلى من أجل انزياح الأزمة وانكشاف الغمام. عسى أن يُستجاب دعاءها قريباً.

ماذا فعل كورونا بالعالم؟

استطاعت جرثومة ضئيلة فى حجم الذرّة أو أقل.. أن تفعل ما لا تستطيعه أعتى الجيوش.. بل إنها أخضعت تلك الجيوش نفسها لقوانين الوباء!

ففى أقل من أربعة أشهر أعلنت حكومات الـدول العظمى الطوارئ، وأغلقت الحدود، وحظرت الطيران والتجوال، ومنعت الاستيراد. وهو ما لم يمنع تفشى الوباء إلا بنسبة.. فاستمر الفيروس فى أفاعيله: فأجبر الناس على الاختباء، وأجبر المتاجر والنوادى والمسارح على إغلاق أبوابها، هكذا استشرى الهلع، وانهارت البورصات، وأفلست الشركات، وتلقَّت أسواق المال ضربة قاصمة لم تتلق مثلها منذ عقود.

أكثر من هذا أن يتجاوز التأثير المدى.. فلا الاقتصاد وحده، ولا الصحة العامة، ولا السياحة والتنقل. بل بات للفيروس، بلا أدنى مبالغة، تأثير عميق ودائم على السياسة العالمية، وعلى خارطة المصالح والتحالفات الدولية. تلك الصورة العجيبة التى رسمها الفيروس الفتاك بريشته الغارقة فى دماء ضحاياه، ليست صورة تخيلية سريالية، بل هى حقائق أفرزتها أزمة عالمية لم يتوقع مدى تبعاتها أحد..

منذ نحو عشر سنوات أو يزيد، حدث انتشار واسع وسريع لفيروس أنفلونزا الطيور ثم أنفلونزا الخنازير فى أعقابه. إلا أن تأثيرهما فى الاقتصاد العالمى لم يقترب من معشار ما حدث اليوم فى حالة فيروس كورونا!

ففى الصين، ومع بدء الأزمة، انهارت البورصة انهياراً سريعاً أدى لانسحاب كبريات الشركات الدولية من أسواق المال، وهو ما استطاعت الصين استثماره جيداً كما اتضح مؤخراً.. وفى أوروبا وأمريكا أدّى التوتر والاضطراب الشعبي والحكومى إلى حدوث سلسلة من الأزمات الاقتصادية غير المتوقعة: اختفت البضائع من المتاجر، وتضاعفت أثمان السلع فى الأسواق الموازية، وفنيت الموارد خلال أيام وأسابيع، واتضح أن المخزون الاستراتيجى لدى تلك الدول الكبري أقل كثيراً من المطلوب، وأن البلد الوحيد المستعد لتوفير متطلبات تلك الدول من السلع والموارد هو الصين! كل هذا بخلاف التأثيرات الأكثر عمقاً وفداحة على أسواق المال، والشركات متعددة الجنسيات، وقطاعات النقل والسياحة والصناعات الثقيلة والتجارة الدولية. وهو ما اضطر تلك الدول للتدخل بدعم مباشر لتلك القطاعات كى لا تنهار فجأة فتنهار معها الدولة. وهو ما يفسر ما أعلنه ترامب من إقرار تريليوني دولار دعماً للأزمة، منها 50 مليار لدعم صناعة الطائرات!

تلك السياسة الاضطرارية للدول الكبري أفرزت فجوة اجتماعية هائلة، بين أثرياء تدعمهم الحكومة الرأسمالية للمرور من الأزمة، وفقراء ينسحقون من مرورها الثقيل.

سياسة الفوضى أو فوضى السياسة

بطبيعة الحال هناك من استند لنظرية المؤامرة لتفسير كل شئ، معتمداً على مقولة كونداليزا رايس حول فكرة الفوضى الخلاقة.. تلك التى يخلق منها كل مُدَّعٍ رأياً يفسر به كل كارثةٍ وأزمة.

ومنذ أن جاء على لسان ترامب لفظ «الفيروس الصينى» فى إشارة لكونه «صناعة صينية»، والاتهامات المتبادلة بين الصين وأمريكا لم تنتهى.

آخرها يؤكد أن الفيروس ليس فيروساً، وأنه غاز سام بثته أمريكا فى تجربة سرية بأفغانستان سابقاً! وهو الادعاء الذى يضع كل معامل ومختبرات العالم فى دائرة الاتهام بالمشاركة فى مؤامرة كونية ما!!

فهل حقاً تنطبق نظرية الفوضى الخلاقة على وباء كورونا؟ أم أن حكومات الدول الكبري مرتبكة فعلاً وقد وقعت فى الفخ الذى أسقطت فيه أعداءها سابقاً؟

ولو أن نظرية المؤامرة تسري على هذا الوباء. فمن هو المنتفع الأكبر من حدوث مثل تلك الكارثة العالمية؟ الشركات الكبري

أفلست، وأمريكا تعرَّت وانكشفت، والاتحاد الأوروبى تفسَّخ إلى دويلات حيرَى لا تدرى ما تفعل، فمن هو المستفيد؟

خارطة السايكس بيكو الأوروبية!

هل استطاع فيروس لا يُرى بالعين، أن يمزق أوصال الاتحاد الأوروبى، كما مزقت بريطانيا وطننا العربي باتفاق سايكِس بيكو قديماً. هل جاء وقت رد الدين؟

بعد خضوع أنجيلا ميركل للعزل الصحى، وتسارع وتيرة الوباء فى إيطاليا وأسبانيا.. أقرَّ المصرف المركزى الأوروبي خطة بقيمة 750 مليار يورو لا لدعم فقراء أوروبا، وإنما لدعم بعض شركات صناعة السيارات والطائرات مثل فولكس فاجن وإيرباص وأليطاليا!

الفكرة هنا أن أوروبا تحارب من أجل البقاء. فبعد عدة ضربات منهكة: الأزمة الاقتصادية 2008، ثم خروج بريطانيا وتداعيات «بريكست»، ثم تدفق اللاجئين وتفكك الناتو، وانقلاب ترامب على حلفائه الأوروبيين.. جاءت الضربة القاضية بهذا الوباء الذى ضرب اقتصاد أوروبا فى مقتل.

إيطاليا استغاثت بحلفائها الأوروبيين، فجاءها المدد من الصين! فيما أصم حلفاؤها آذانهم. حيث كل دولة مشغولة برعاياها! وقد أعلنها رئيس صربيا فى وجوه قادة أوروبا صريحة مدوية: «أن

التضامن العالمى وهم، وأن التحالف الأوروبى أضحى شبيهاً بقصة خرافية من قصص العجائز!».

انجراف تيارات الفن والثقافة والفكر

على الصعيد الفلسفى وضع كورونا لنفسه بصمة غائرة، سوف تدوم لسنوات تالية..

بدا هذا واضحاً جلياً منذ اللحظة الأولى التى اندفع فيها كل شخص نحو معتقداته يفندها أو يتمسك بـأهدابها.

وعقب كل كارثة عالمية كانت تحدث مثل تلك الموجات الفكرية العاتية التى تجرف معها كل فكرة قديمة وتضع مكانها فكرة أخرى جديدة قديمة.

ربما لا تظهر بوادر تلك الفلسفات أثناء المعمعة.. وإنما بعد انقشاع الغبار، وصفاء السماء، ووضوح الصورة بجلاء وبكل تفاصيلها ومفارقاتها الدرامية.

بعد كورونا سوف يكون هناك تيار فنى وثقافى وأدبي مختلف ومغاير لما مضى. ودور السينما والمسرح التى توقفت سوف تجد لها موضوعاً دسماً تعمل عليه لسنوات أخرى قادمة.

هناك أغانى كثيرة تدفقت فى الفضائيات والإذاعـات وعبر الميديا واليوتيوب عن وباء كورونا، سواءً أغانى عربية أو أجنبية، بعضها يحث على البقاء بالمنزل وينشر التوعية أو يبث الاطمئنان

فى النفوس القلقة، وبعضها الآخر فكاهى يصف أحوال الناس فى الحظر المنزلى وتداعيات كورونا. ونمط آخر قام بتحوير أغانى قديمة شهيرة كتحوير كلمات أغنية البؤساء «les miserables» لتلائم الأحداث الحالية.. ثم هناك إعادة توظيف للأغانى القديمة لمشاهير المطربين كأغنية «خليك بالبيت» لفيروز وأغنية «لسة الأغانى ممكنة» لمحمد منير..

لقد كانت الأغنية هى الأسبق ظهوراً بين أنواع الفنون، ولن يلبث كورونا أن يظهر لاحقاً فى الدراما والمسرح والسينما..

عزلة أمريكية.. انفتاح صينى

فى مقال بمجلة «فورين أفريرز»..تحدث الكاتبان الأمريكيان (هنري فاريل وأبراهام نيومان) عن الآثار الجيوسياسية للوباء. متخذين من أمريكا والصين محوراً لرؤيتهما التحليلية..

ففى مقارنة بين كفاءة إدارة الأزمة لدى الصين، وتباطؤ المؤسسات الأمريكية أكد الكاتبان أن ثقة الجمهور بكفاءة القيادة الأمريكية تزعزعت، وأن أساليب ترامب الفردية ونزوعه الدائم للعمل بمعزل عن المجتمع الدولى أربك العمل المؤسسى الأمريكى القائم على جمع التحالفات، والإجماع أو الالتفاف الجماهيري، ثم قدرة أمريكا اقتصادياً وتكنولوجياً على تجاوز الأزمات والكوارث. وهو ما لم يحدث فى حالة كورونا. بل على العكس، بدت استجابة أمريكا

بطيئة فاترة، وأن الصين تحركت بسرعة للاستفادة من الثغرات التى نشأت من أخطاء الإدارة الأمريكية لتملأ الفراغ وتضع نفسها فى قيادة العالم لمواجهة الكوارث وفى مقدمتها وباء كورونا!

تلك رؤية المراقبين الأمريكيين التحليلية حول ما أفرزته الأزمة حتى الآن.. فماذا عن المستقبل؟

خريطة جيوسياسية جديدة

الجميع تضرر من مغبات الوباء.. لكن العالم ينتظر ليشهد من يقف على قدميه أولاً..

كان غريباً أن الحكومات التى اتخذت إجراءات صارمة مبكرة سريعة، لم تكن من بينها حكومات دول الغرب الكبري! ففى حين أغلقت روسيا حدودها البرية مع حليفتها الصين، وألغت تأشيرات دخول الأجانب، ووضعت قطاع الخدمات الصحية فى حالة تأهب قصوى، وأغلقت مؤسسات التعليم حتى منتصف أبريل، ووضعت قوانين صارمة لاحترام شروط الحجر الصحى.. أدى التراخى فى أداء الحكومات الغربية إلى تحول أوروبا إلى بؤرة ثانية للوباء، هى أكبر وأخطر من البؤرة الأولى.

معنى هذا أن النموذج الأمثل لإدارة الأزمات لم يكن الغرب ولا أمريكا. بل الصين وروسيا وكوريا الجنوبية. وأن التجربة العملية

أثبتت جاهزية تلك الدول على التعامل مع الأزمات، بل وتقديم نفسها كداعم قوى للدول الأخرى الأقل قدرة على إدارة الأزمة والتعامل مع تبعات الوباء.

الأهم من هذا وذاك أن الصين باتت فى صدارة الدول التى خرجت من محنتها أقوى وأكثر حنكة واستعداداً، كما أنها عوضت خسائرها المادية، وهى على وشك تحويل تلك الخسائر إلى مكاسب هائلة، خاصةً فى ظل تعطش الأسواق العالمية للبضائع الصينية التى تمتاز بالوفرة وقلة التكلفة.

الحكومات قبل الشعوب شهدت عملياً كيف أن تشبثها بالحلفاء الأوروبيين ومن ورائهم أمريكا القائد الأوحد للعالم، هو تشبث بأوهام أثبتت التجارب مدى زيفها.

كل الطرق تؤدى إلى الصين

الصين لعبت دور البطولة باقتدار..

عندها بدأ الوباء، وعندها انتهى أو أوشك.

خرجت الصين من التجربة تلملم خسائرها وتستجمع شتاتها، فيما غاصت أقدام أوروبا وأمريكا أكثر فى عمق الأزمة التى يبدو أن تأثيرها على الغرب أشد وأدوم.

استطاعت الصين من الاستفادة من أخطاء الدول الأخرى خاصةً أمريكا.

فإذا كان الوباء مؤامرة أمريكية كما يدعى أصحاب نظرية الفوضى الخلاقة، فلاشك أن السحر انقلب على الساحر، وباتت أمريكا هى الخاسر الأكبر..

بينما بدا أن كل طرق النجاح تؤدى إلى الصين!

الفصل
الخامس

مصير كورونا..

مصير العالـم..

وباءٌ يدسُّ الردَى فى السعال

ويُشقِى البرايا بسوءِ الفعال

نذيرٌ بـأن اقتراب الحتوم

كقربِ الحصَى من شركِ النعال

أمريكا والصين فى المواجهة

الناس تتساءل: كيف استطاعت الصين التغلب على وباء كورونا فى هذا الزمن القياسي؟ وقد حققت نسبة شفاء اقتربت من 95٪ من الحالات التى لم تعد تزيد!

الرد السهل أن الصين لديها علاج سري أو لقاح خفى، تحقنه فى أوردة مرضاها دون علمهم، فيشفَون بسرعة وهم يظنون أن العرقسوس والإفيدرا هما السبب!

والرد الأصعب قليلاً هو أن الصين لديها نظام صحى متطور بدليل أنها استطاعت بناء مستشفى سعة 1000 سرير فى خمسة أيام!

أما الحقيقة فكانت أشد تعقيداً وغرابة من كل هذا..

مما جاء فى شبكة التليفزيون الصينى الدولية، وقدّم له أحد الأطباء.. كلام عن الطريقة الصينية فى التعامل مع الأزمات والكوارث له العجب..

الحقيقة الأولى هنا: أن شوارع الصين ومتاجرها تنتشر بها أكثر من 200 مليون كاميرا، وأن المعلومات والصور التى تتوارد على تلك الشبكة الهائلة من الكاميرات تتدفق بالدقيقة والساعة على كومبيوتر مركزى، أو ما يُدعَى big data center.

الحقيقة الثانية: هى أن المواطنين فى الصين لهم أكواد، وحينما حدث استشراء للوباء تم تفعيل تلك الأكواد وتصنيف الناس على أساسها، بحيث أن المواطن المميز بالكود الأحمر هو شخص مصاب ينبغى عزله، والأصفر معرض للإصابة، والأخضر سليم. بهذه الطريقة وبمتابعة الكاميرات المنتشرة، بالإضافة لعناصر الشرطة، يمكن بسهولة التعرف على مسارات المواطنين فى منطقة ما.

الحقيقة الثالثة: هى أن السلطات الصينية تستعين بتكنولوجيا الروبوت، والغرض منها تقليل الاحتكاك بين البشر، حتى أن رجال الشرطة وعناصر الفرق الطبية تستعين بأجهزة قياس حرارة يتم توجيهها عن بُعد.

إن عناصر الشرطة أنفسهم مزوّدون بخوذات ذكية بها أجهزة مُدمجة لقياس حرارة المتعاملين معهم على بُعد 5 أمتار، وبالخوذة كاميرا صغيرة مزودة بمعالج بيانات كمبيوترى، وكلاهما متصل بالشبكة الأم.

أما البيانات التى يتم جمعها فى الذاكرة العملاقة، يتم تحليلها وتصنيفها وفقاً لبرامج وتطبيقات تستخدم خوارزميات الذكاء الاصطناعى لمعالجة البيانات..

والغرض النهائى من تلك المنظومة الرقمية تحقيق سرعة الوصول للأشخاص المشتبهين أو المصابين للتعامل معهم، مع

التأكد التام من عدم وجود تسرب أو تسلل لأشخاص مصابين خارج دائرة العزل.

أمريكا.. كيف هى الآن؟

بالمقارنة بين النموذجين الصينى والأمريكي.. اتضح أن ما نراه من نموذج السوبرمان الأمريكى مجرد وهم سينمائى وخدعة تجميلية أثبت الواقع زيفها..

ففى غضون أسابيع قليلة تم استنزاف احتياطى القطاع الصحى الأمريكى من المعدات والمستلزمات الطبية حتى ارتدَت الممرضات أزياء عازلة مصنوعة من أكياس القمامة! وتعرض الكثيرون من أفراد الشرطة وأفراد القطاع الصحى لإصابات بالعشرات، وسادت الفوضَى، واضطر ترامب للاستنجاد ببضائع الصين، وتشجيع الأطباء والممرضات من أى مكان بالعالم للقدوم إلى أمريكا أرض الفرص، وعندما تأزمت الأوضاع أكثر أعلن أن الأولوية للاقتصاد لا للبشر، وأن أمريكا فوق الجميع!

الاختبار الكبير وضع أمريكا فى مواجهة ومقارنة اضطرارية مع الصين، والعالم يراقب، وأمريكا نفسها تعرف أن المستقبل لم يعد يفتح لها ذراعيه بنفس الحماس!

أمريكا الآن فى أزمة حقيقية، وكل ما يحاول ترامب الآن فعله، طبقاً لتصريحاته، تجاوز أزمة اقتصادية تلوح فى الأفق، بحيث لا تصبح تداعياتها بعيدة المدَى.

تتحكم أمريكا فى حركة التجارة العالمية، وتفرض قيودها وقوانينها على الجميع..

الاستثناء الوحيد كان الصين. القوة الصاعدة بإصرار وثبات دون اكتراث بالقيود الأمريكية التى تحافظ لأمريكا على موقعها المتصدر.

أمريكا لم يعجبها أن تتحالف الصين مع دول الجوار، ولا أنها أنهت مشاكلها الحدودية لتتفرغ للاقتصاد، ولا أنها اقتحمت العمق الأفريقي لتنشئ مشروعات فى مختلف بلدان الشرق والوسط الأفريقي كالسودان وزيمبابوى وكوت دى فوار وغانا ونيجيريا والكونجو. ولا أنها صارت أكبر ثانى الدول إنفاقاً على صناعة السلاح وتطوير قوتها الدفاعية. لهذا، وبدلاً من أن تمد يدها للصين ولو دبلوماسياً، أعلنت أمريكا الحرب التجارية ضدها لكبح هذا الصعود الذى يهدد عرشها الكونى.

روسيا بالأمس أكدت أن الوباء هو صناعة أمريكية فى إطار تلك الحرب التجارية نفسها، بدليل شماتة أمريكا وسعادتها بما حدث فى الصين فى بداية الأزمة، قبيل انتشاره فى أوروبا والغرب، ومسارعة أمريكا فى حث الشركات متعددة الجنسيات على الانسحاب من البورصة الصينية، وغلق مقراتها فى الصين. كأن أمريكا وجدت، أو أوجدت، الفرصة السانحة للقضاء على الصعود الصينى.

ما حدث تالياً لم يكن على هوَى أمريكا، بل كان تبدلاً للمشهد الذى استدار بزاوية 180 درجة ضد أمريكا ولصالح الصين!

الصين تحكمت سريعاً فى الوباء خلال النصف الأول من شهر مارس، وهو التوقيت الذى بدأت فيه الجائحة تكشر عن أنيابها فى الولايات المتحدة بحيث باتت أمريكا رقم واحد من حيث الإصابات خلال أسابيع ثلاثة فقط!

الغريب فى الأمر أن يتحول الانهيار السريع للبورصة فى الصين إلى أكبر فرصة لها لتحقيق أهدافها. فطبقاً لمراقبين، أن انهيار أسعار الأسهم للشركات الأمريكية الكبري العاملة فى الصين، دفعها لبيع تلك الأسهم بأسعار زهيدة، حيث اشترتها الحكومة ليغدو تحكمها في تلك الشركات كاملاً. إنه نوع من التأميم الذى لم تبذل فيه الصين ضغوطاً لإجبار الشركات الأمريكية عليه، بل حدث بكامل إرادة تلك الشركات التى تسرعت وباعت أسهمها!

المعروف أن أمريكا لها ديون داخلية كبري فى صورة سندات حكومية. فمن تتصورون المالك الأكبر لهذه الديون، والمشترى الأول لها.. إنها الصين.

الآن.. الصين تعيد بناء ما أفسده الوباء، وقد خرجت رابحة فى معركة البورصة، وبضائعها التجارية باتت هى المطلوب الأول لدى سائر الأسواق العالمية، حتى أن دول العالم المتقدم تستولى على

هذه البضائع فى البحر بطريقة القرصنة، ومن تلك الدول أمريكا نفسها!فمن الذى ربح الحرب التجارية؟

جيمى كارتر يعرف السر

فى لقاء ودى جمع بين ترامب والرئيس الأسبق جيمى كارتر قال له كلاماً هاماً: «أنت تخشى أن تسبقنا الصين.. فهل تعرف لماذا الصين في طريقها لتجاوزنا؟ لقد قمت أنا بتطبيع العلاقات الدبلوماسية مع بكين سنة 1979. منذ ذلك التاريخ، هل تعلم كم عدد المرات التي خاضت فيها الصين الحرب ضد أحد؟ ولا مرة.

أما نحن كأمريكيين، فقد بقينا في حالة حرب دائمة. الولايات المتحدة هي البلد الأكثر ولعاً بالحروب في تاريخ العالم، لأنها ترغب بفرض القيم الأميركية على البلدان الأخرى. بينما تنشغل الصين باستثمار مواردها في مشاريع كبري مثل سكك الحديد للقطارات فائقة السرعة بدل تخصيصها للنفقات العسكرية. كم كيلو متر من السكك الحديدية للقطارات فائقة السرعة لدينا في بلدنا؟ لقد بدّدنا 3000 مليار دولار على النفقات العسكرية. أما الصين فلم تبدّد فلساً واحداً على الحروب، ولذلك هي تتفوّق علينا في جميع المجالات تقريباً.

إن العنف المسلح موضع تساؤل لدولة تبلغ نسبة نفقاتها العسكرية 45٪ من الإنفاق العسكري العالمي ولديها 725 قاعدة عسكرية في الخارج، ويتحكّم صانعو الأسلحة فيها بالدولة العميقة

ويحددون السياسة الخارجية المسؤولة عن 20 مليون قتيل منذ سنة 1945. في هذا الصدد يقول مارتن لوثر كينغ: «إن حرب فييتنام هي أحد أعراض المرض الذي يضرب الذهنية الأميركية التي تقوم على دعائم ثلاث هي العنصرية والمادية والعسكرة.»

إن هذه المسألة تمسّ المستقبل الأمريكي بشكلٍ خاص. فهل حُكم على الولايات المتحدة، بسبب خطأ قادتها، أن تعرف ذات المصير الذي عرفته تلك الإمبراطوريات التي بادت بسبب طموحاتها المنفلتة من كل عقال، والتي اختنقت بالمعنى الحرفي بسبب الوزن الباهظ لنفقاتها العسكرية؟

إن المحافظين الجدد وغيرهم من «محبي القنابل» في البنتاجون، منذ عدة عقود من السنين، لم يشاءوا الربط بين الليبرالية وبين المجازر الجماعية في فييتنام ولاوس وكمبوديا وأفغانستان والعراق وليبيا وسوريا، ناهيك عن أعمال القتل السرية التي أدارتها المخابرات الأميركية وفروعها، بدءاً من إبادة اليسار الإندونيسي (500 ألف قتيل) وصولاً إلى فرق الموت في جواتيمالا (200 ألف قتيل) مروراً بحمامات الدم التي نفذت لحساب الإمبراطورية بواسطة مسعوري الجهاد العالمي.

أولئك المتجبرون لم يشعلوا النار ويُسيِّلوا الدماء في الكرة الأرضية فقط. بل إن مروِّجي الحروب هؤلاء، وهم دُمىً متحركة

في أيدي الدولة العميقة الأميركية، المقيمون في الكونجرس والبيت الأبيض ومراكز الأبحاث التابعة للمحافظين الجدد قد أغرقوا المجتمع الأميركي نفسه في حالة ركودٍ داخلي يختبئ خلف قناع الاستخدام المحموم لطباعة العملة.

فإذا كان الولع بالحروب هو التعبير عن صدارة الولايات المتحدة كشرطى كونى، فإنه أيضاً السبب في تراجعها الاقتصادى. كنتيجة للتدخلات العسكرية الوحشية وعمليات التخريب الاقتصادي وعمليات الخداع. وهو السبب فى التضخّم الجنوني في النفقات العسكرية، للتضحية بالتنمية في بلدٍ يزداد فيه الأغنياء غنىً ويزداد الفقراء فقراً وضياعاً.

في الوقت الذي تستثمر فيه الصين في البُنَى التحتية المدنية، تتخلى الولايات المتحدة عن تلك البنى لمصلحة صناعة السلاح. تتفاخر واشنطن وتتحدّث بصخبٍ في الخارج، لكنها تترك البلاد تتفسّخ في الداخل.

إن الناتج الإجمالي المحلي هائل بالنسبة إلى عدد السكان، لكن 20٪ منهم يقبعون في الفقر، السجون مكتظة: حيث يشكّل عدد السجناء الأميركيين 25٪ من عدد السجناء حول العالم. 40٪ من السكان مصابون بداء السمنة. معدل أعمار الأميركيين (79.6 سنة) يأتي بعد معدل أعمار الكوبيين (80سنة). كيف يمكن لبلدٍ اشتراكي

صغير، وخاضع للحصار، أن يكون أفضل من قوةٍ عظمى رأسمالية مكلّلة بالهيمنة الكونية؟ لقد ارتفع العجز التجاري الأميركي إلى رقمٍ قياسي تاريخي سنة 2018 ليبلغ 891 مليار دولار. وقد فاقمت الحرب التجارية التي انخرط فيها ترامب العجز التجاري الأميركي. وإذا أضفنا إلى ذلك أن العجز التجاري مع أوروبا والمكسيك وكندا وروسيا قد تفاقم أيضاً، يمكننا قياس الصعوبات التي تضرب القوة العظمى المتداعية.

كان جيمى كارتر وقتها يتنبأ بأن الصين وغيرها من الدول الصاعدة ستأخذ مكان أمريكا فى 2050م.. فهل جاء كورونا ليسرّع من تحقق نبوءة كارتر؟

تودوروف.. يبشر باللانظام العالمى الجديد

تزفيتان تـودوروف واحد من أشهر وأهم المنظِّرين والنقاد المعاصرين فى العالم..

وهو مؤرخ وكاتب معاصر فرنسي من أصل بلغارى ولد عام 1939م وتوفى عام 2017م عن عمر يناهز 77 عاماً. وكان مما كتبه مؤلَّف بعنوان:(اللانظام العالمى الجديد – تأملات مواطن أوروبى).

الكتاب صدر مترجماً فى سوريا عام 2006م، وكانت الحرب الأمريكية على العراق قريبة العهد، وهى المدخل الذى انطلق منه تودوروف لمناقشة النظام العالمى الجديد فلسفياً. ومعنى هذا أن نقد النظام العالمى ومآلاته مستمر منذ مطلع القرن الواحد والعشرين، بل قبل هذا بسنوات.

يري تودوروف أن الديموقراطية أفرزت ثلاثة أعداء هم:

1 – المسيحية السياسية: التي تزعم بأنها خلاص العالم، في حين ترتكب أفعالاً مشينة و شرِّيرة باسم الخير، تعمل على تبرير أفعالها بدافع الوصول إلى غاية يتم وصفها على أنها مبتغى سام للإنسانية.إن استخدام العنف المفرط يلغي قيمة ونبل الهدف المتوخى. من جهة أخرى إن واقعة فرض الخير على الآخرين

بدل الاكتفاء باقتراح ذلك عليهم، بدعوى أنهم غير قادرين على حكم أنفسهم وأن تحريرهم يستوجب أولاً إخضاعهم مسوِّغ لا يجد له أي تبرير مقبول، وعلى هذا المنوال وقع التدخل في أفغانستان و العراق و ليبيا. إن عبارة التدخل الإنساني ما هي إلى تورية ملفقة لعبارة التدخل العسكري. إن تحقيق عالم مثالي على الأرض كما تدعي المسيحية السياسية مجرد زعم كبير.

2 – الليبرالية المتطرفة: تنطلق هذه الأيدولوجيا المهيمنة من مسلمات ثابتة تنص على قدرة الفرد على تحقيق اكتفائه بذاته و لذّاته وأن إشباع حاجياته المادية يشكل القيمة العليا للحياة البشرية، وهكذا تعمل هذه الأيدولوجيا على عزل النشاط الاقتصادي عن باقي أصناف الممارسة الانسانية، عند هذا الحد تتوقف السلطة السياسية عن إمكان لجم السلطة الاقتصادية تحت ذريعة الحرية الفردية.

ينتج عن انتفاء المراقبة السياسية ضياع للصالح العام و بحث لا محدود عن الربح الفوري فتفقد الحياة معناها و يتم تجريد الكائن البشري من إنسانيته. كما قال مونتسكيو يوما «إن كل سلطة بلا حدود، لا يمكن أن تكون سلطة مشروعة».

3 – الشعبوية: أى سياسة تملق الشعب لتهييجه، إن الشعبوية التي هي قديمة قدم الديموقراطية تسعى إلى تقديم حلول مبسطة و سطحية و مضللة يعمل التلفزيون ووسائل الإعلام على تغذيتها

و إنجاحها بشكل ما. لقد باتت تتمتع بحضور قوي في أروبا بتركيزها المفرط على التمييز بين السكان الأوروبيين الأصليين وبين الوافدين. متناسيةً أن التعاون وتبادل الثقافات وامتزاجها يعزز توسع وإثراء بلد بأكملها، ولأجيال أخرى تالية.

هكذا يرى توردوروف أن المبادئ التى قامت عليها الاقتصاديات فى أوروبا والغرب، والديمقراطية المزعومة التى تمارسها تلك النظم تقع فى نفس أخطاء أعداء الديمقراطية الطبيعيين. بمعنى أن الأفكار الغربية والأوروبية تناقض ذاتها، وتحتاج لإعادة تفنيد مبادئها وتقييمها.

منظومة لن تستمر

تحت عنوان (هشاشة الإمبراطورية) يعتبر تودوروف أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة هى سياسة نظام الإمبراطورية، وأن ما تفعله فى حروب الشرق الأوسط التى تستهدف البترول تحت غطاء فرض الديمقراطية يصب فى نزعاتها الإمبريالية التوسعية، وأن النموذج الإمبراطورى الذى تسعى أمريكا لتحقيقه يختلف عن النزعة الاستعمارية لدى كل من فرنسا وبريطانيا فى القرن التاسع عشر، كما يختلف عن السياسة التوسعية التى توخَّاها الاتحاد السوفيتي فى القرن العشرين. بينما الإمبراطورية الأمريكية لا تشبه هذا ولا ذاك؛ حيث لا تحتل أمريكا البلدان ولا تسعَى لضمها بل تكتفى بالهيمنة عليها تحت شعار: «مَن ليس معى فهو عدوى».

يقول تودوروف، مبرراً أسباب هشاشة تلك المنظومة: (تستطيع الولايات المتحدة اليوم الانتصار فى أى مواجهة من النوع الكلاسيكي، ذلك ما يبدو من الأمور الواضحة. لكنها إزاءَ التهديد الإرهابي تشبه تقريباً الملاكم الذى يحاول سحق البعوض من دون نزع قفازَيه.). وهو يشير فى هذا إلى حادث انهيار البرج العالمى سبتمبر 2001م والذى اتخذته أمريكا ذريعة لتحقيق مبتغاها فى الشرق الأوسط، وتابَعنا تداعياته منذ ذلك الحين إلى الآن.

يتابع تودوروف: (ليس من المؤكد أن الحرب فى العراق قد ساهمت حقاً فى استئصال الإرهاب، فالعنف يولِّد عنفاً.. سيحس الكثير من المجموعات السكانية العربية والمسلمة أو ببساطة المجموعات السكانية غير الغربية بأن فى هذه الحرب إذلالاً لهم بالضرورة، والحال أن الإذلال الواقع أو المتخيَّل أب التعصب.).

إن ما بشَّر تودروف به، بشكل غير مباشر، من أن النظام العالمى الجديد عُرضَة للانهيار بسبب زوال الأسس والمبادئ التى بُنىَ عليها. وأن التوحش الاستعمارى، والأطماع الاقتصادية المدمجة فى أفكار النيولبراليزم، ومقاومة أمريكا لفكرة أن يكون لها شريك فى زعامة العالَم. كل هذا أفضى إلى اللامعنَى.. إنه نظام دولى بلا معنَى ولا هدف ولا أسُس، بعد أن اختلطت المفاهيم وضلت المبادئ طريقها.

لم يعِش تودوروف حتى يشهد الوباء وكيف أثَّر على العالَم..

لكنَّ ما حدث فى شهر واحد بفعل انتشار الوباء القاتل، فاق ما حدث فى عشرات السنين الماضية..

لم يعش ليسمع صندوق النقد الدولى (IMF) يصرخ محذراً أن الاقتصاد العالَمى يمر حالياً بحالة غير مسبوقة من الركود، قد تفوق ما حدث 2008م. وأن ديون الدول الكبري سوف تتضاعف وتقفز إلى أرقام خطيرة. وهو ما قد يؤثر على الاقتصاد العالمى لسنوات طويلة قادمة.

لم يشاهد تودوروف مُواطِنى إيطاليا وأسبانيا وصربيا يَكفرون بالاتحاد الأوروبى ويحرقون أعلامه على شاشات وسائل التواصل، بعد أن انصرف الاتحاد عن مساعدة الشعوب إلى مساعدة رؤوس الأموال والكيانات الاقتصادية الكبري.

لم يبقَ ليري كيف انهارت كل مبادئ التحضر والتقدمية دفعةً واحدة، لتتحول دول أوروبية كبري إلى قراصنة يتسابقون على سرقة البضائع فى عرض البحر!

كيف يظل بعد هذا مَن يثق فى المنظومة العالمية، أو المبادئ الأوروبية التقدمية، أو الديمقراطية الأمريكية المزعومة.. بل كيف سيصدق هؤلاء المتشدقون بالتقدمية المزعومة والتحضر الزائف أنفسهم؟!

مؤشرات السقوط والصعود

هناك ثلاثة أسئلة هامة: هل ستنهار أمريكا؟ هل يمكن أن يحدث هذا؟

سؤال آخر: هل سينهار النظام العالمى؟ وما هو البديل المتاح؟

وسؤال أخير: هل يمكن أن يشهد العالم سقوطاً لا لأمريكا وحدها، ولا للنظام العالمى وحده، وإنما لسائر حقبة العصر الحديث المستمرة منذ عام 1500م.. ليدخل العالَم فى حقبة أخرى شرقية بامتياز؟!

تلك التساؤلات قديمة، وهى مَثار حديث مجموعة من كبار الفلاسفة والمنظّرين منذ مدة طويلة. أكثر هؤلاء من الأمريكيين أنفسهم؛ لأنهم يخشون المآلات، ويعرفون كغيرهم أن «الأيامَ دُول»، أو كما قال الفيلسوف الألمانى شبنجلر: «أن التاريخ الإنسانى ليس خطاً مستقيماً، بل هو دورات شبيهة بدورة الحياة.. ولادة وشباب، ثم كهولة وموت».. وأمريكا قاومَت فكرة الأفول طويلاً، فاعتبرت نفسها حضارة لا تشيخ ولا تضعف. وفى محاولة لإثبات قوتها المهولة وشبابها الدائم، واجهَت العالَم بأسلحتها الفتاكة وحروبها التى بلا نهاية.

(صمويل هنتنجتون) كان يعلم أن أمريكا لن تتخلَّى عن قيادة العالَم، فكانت رؤيته لحدوث الدورة التاريخية الطبيعية لسقوط وصعود القوى الكبري، هى أن «صدام الحضارات» قادم فى شكل تكتلات وتحالفات يواجه بعضها بعضاً والبقاء للأقوى.

بينما كان رأى (فوكوياما) أن أمريكا هى الأصلح لقيادة الكون لمائة عام قادمة!

وهو ما لم يؤمن به (بول كينيدى) فى كتابه (نشوء وسقوط القوى العظمى) حيث استقرأ التاريخ الطويل للحضارات، واستنتج ما هو معلوم سلفاً، بأن الدول العظمى عليها أن تنتبه. والأفضل، قطعاً، هو أن تتقبل حقيقة أفولها القادم حتماً.

بول كينيدى وتحذيرات تحقَّقت

بول كينيدى مؤرخ أمريكي من أصل انجليزى، وهو تلميذ الباحث الاستراتيجى المعروف ليدل هارت. وكتابه المشار إليه صدر له عام 1978م، وكان صدوره بمثابة قنبلة ألقيت فى وجه النخبة الأمريكية التى لم تتوقع أن يجسر أحد على مجرد مناقشة فكرة سقوط أمريكا، ولا كونها فكرة محتملة..

اليوم تتحقق رؤية كينيدى بحذافيرها..

وفى الخلاصة التى جاءت فى خاتمة كتاب كينيدى، قال:

(.. من حمق ساسة الدول أن يفترضوا أن الوضع سيبقَى هكذا إلى الأبد. لقد كان تاريخ الشئون الدولية طوال الخمسة قرون الفائتة تاريخ حروب أو فى الأقل استعداد لحروب، نظراً لطبيعة التنافس والفوضَى التى اتسمت بها خصومات الأمـم... ويعتقد معظم المؤرخين أن الحرب ونظام القوة العظمى يسيران دوماً يداً بيد.. والذين يعتقدون أن الإنسان لن يكون أحمقاً لدرجة توريط نفسه فى حرب قوة عظمى مكلفة أخرى، ربما يحتاجون لتذكيرهم بأن هذا الاعتقاد قد سبق تبنِّيه أيضاً بشكل واسع فى القرن التاسع عشر «أى قبيل الحربين العالميتين مباشرةً».).

وفى نهاية الكتاب يعطى خلاصة نصائحه لمن يهمه الأمر فيقول:

(.. من الجلى أن هناك تحولات مهمة فى التوازنات آخذة بالحصول مهما كان احتمال الاصطدامات التقليدية أو النووية، وربما بسرعة أعلى مما عليه سابقاً.. وأنه ما لم تتبدل اتجاهات السياسة العالمية سيحدث ما يلى:

1 – سيحصل انتقال فى حصص الإنتاج العالمى وإجمالى الإنفاق العسكرى العالمى من أكبر خمسة مراكز للقوة إلى أمم أخرى كثيرة.. «وهو ما حدث»

2 – هناك اتجاهات للسوق الاقتصادى تأخذ نمطاً ما: – السوق الأوروبية والولايات المتحدة تتمتعان بنفس القدرة الإنتاجية

والتجارية تقريباً «مع أن الثانية تتفوق لكونها دولة عسكرية».
- الاتحاد السوفيتى واليابان متكافئان أيضاً «بالرغم من أن نمو اليابان أسرع». - جمهورية الصين الشعبية ما زالت تقبع فى الخلف لكنها تنمو بوتيرة أسرع من الجميع.. «وها قد سبقت الجميع كما توقع بول كنيدى».

3 - .. قد تتآكل ثنائية القطب.. «وهو ما حدث بسقوط الاتحاد السوفيتى».. لكن الانصراف إلى الحرب أو تخصيص حصة ضخمة من «قدرة الأمة الصناعية» على الإنفاق التسليحى «غير الإنتاجى» يخلق خطر تآكل القاعدة الاقتصادية القومية.. «وهذا ما حدث لأمريكا اليوم فى مواجهة الصين، وما حذر منه جيمى كارتر كما سبق وأسلفت..».

غير أن هناك دراسات أخرى كثيرة تحدثت فى هذا الشأن من زوايا مختلفة، وكان من آخر هذه الدراسات وأخطرها ما تسرب عن البنتاجون عام 2017م..

البنتاجون يتهم أمريكا بالعنجهية

هذا تقرير من بين تقارير أخرى كثيرة تصدر من المؤسسات الأمريكية باستمرار حول المسارات العامة والجزئية للاقتصاد والسياسة والاستراتيجيات العسكرية داخلياً وخارجياً.. مدير المشروع وكاتب التقرير الرئيسي يُدعَى Nathan Freie، وقد

تم دعم هذه الدراسة ورعايتها من قِبَل إدارة الخطط الاستراتيجية والسياسة للجيش الأمريكي وقيادة الأركان وفرع الاستراتيجية والسياسات ومكتب نائب وزير الدفاع لشؤون الاستراتيجية وتطوير القوة ومكتب إدارة برنامج دراسة الجيش. ورغم أن التقرير لا يمثل البنتاجون رسمياً، لكنه يعطى انطباعاً حول طريقة تفكيرهم ونقدهم الذاتى لأنفسهم.. وقد كان من بين أهم وأبرز النقاط التى أوردها ناثان فى خلاصة التقرير وتوصياته:

- الإطار الدولي أعيد تشكيله بطرق «غير مضيافة» وغالبا ما تكون «معادية» للقيادة الأمريكية. مثال ذلك: «تكاثر المقاومة الفعالة ضد الولايات المتحدة وتنوعها وتجذرها »، فضلاً عن:«الروح التنافسية التى تتصاعد لدى عدد من البلدان وتشكل أنماطاً مختلفة المَرامى، ويُنظَر لها على أنها في إطار عملية إعادة الهيكلة الدولية الجديدة. ووفقاً للتقرير فإن الولايات المتحدة غير مستعدة لمجابهة مثل تلك التحولات. ويسعى التقرير إلى تزويد الولايات المتحدة بكيفية التعامل مع هذه السيناريوهات الجديدة الناشئة.
- بكل جدية فإن العداء للجيش الأمريكي قائم، وهو لم يأتِ من فراغ؛ فمن الواضح تماماً تضخم مستوى التعالي للقيادة الأمريكية وتدخلها المتواصل في الشؤون الخارجية للدول والبلدان، وهو ما أوجدَ عدداً من الخصوم الذين لم يعد لديهم استعداد للانحياز إلى المصالح الأمريكية.

- على الرغم من أن التقرير يكثر من الضغط على كلمة «التكيف»، فإن ما يبدو أن القرار الأمريكى ليس على استعداد للتكيف على الإطلاق.
- التقرير لا يدعم في الواقع الادعاءات بأن دولاً مثل روسيا وإيران وكوريا الشمالية تشكل تهديداً حقيقيا للأمن القومي الأمريكي، بل أن هذه الدول تسعى إلى تحقيق مصالحها الأساسية. وإذا كانت تلك الدول تمثل تهديداً، فللنظام العالمى لا للمصالح الأمريكية المباشرة.

هذا التقرير، وبرغم أنه لم يُضِف جديداً، كما لم يكن شديد الأهمية أو خطير المغزى، لكنه يمثل مؤشراً حول نوع من القلق يساور المؤسسات الأمريكية، وإن كانت تخفيه فى تعاملاتها الرسمية بصلفها المعتاد.

ظهور الكبار

هناك ظاهرة ملحوظة فى أجواء الإعلام الآن، هى الاستعانة بآراء شخصيات سياسية وفكرية لها وزنها، كانت قد اختفت إعلامياً منذ فترة..

كان غريباً ومفاجئاً ظهور شخصية مثل نعوم تشوميسكى الفيلسوف والمفكر الأمريكي المعروف على وسائل الإعلام، والغريب أكثر أن يظهر فى برودكاست يُدعَى: «Useful Ideots»، ربما لأن نعوم من كبار المناهضين للإمبريالية الأمريكية ونظام الشركات الكبري الذى يسحق

الفقراء. لهذا كان من أكثر المنتقدين للسياسة التى تتخذها أمريكا فى مواجهة انتشار فيروس كورونا، حيث قال: (إنّ ما يحدث حاليّا صادمٌ بالفعل، إنّ الشّعب لا يتمكّن من إجراء التّحاليل، ولا المستشفيات تمتلك ما يكفي من الأسرّة بسببِ طغيان عقليّة الكفاءة الاقتصادية!

إن كلّ ما يتوجّب هو أن يكون لديك ما يكفي من الأسرّة للغد القريب. لكن النظام الصّحي في مستشفياتنا ينهار، كما أصبحنا فعلا عاجزين عن توفير تحاليل بسيطة! فى حين تمكّنَت دولة مثل كوريا الجنوبيّة من توفيرها بسهولة. ونعجز، كمجتمعٍ فاعلٍ، أن نواجه وباء كورونا الذي يبدو أنّه خرج عن سيطرتنا، كأننا لسنا مستعدّين لمواجهته. كلّ ما نحسنه، وكلّ ما كان يحسنه زعماؤنا بكفاءة طوال السنين الأربعين الماضية، هو تكديس الأموال في خزائن الأثرياء وقادة رجال الأعمال؛ بينما نسيرُ باستقامة نحو الهاوية. وها نحنُ الآن نواجه العواقب، ولو لم نستطع أن نعيَ كارثيّة هذه المشكلة، فإننا لن نمتلك القدرة على الاستجابة لها.»

كما كان ملفتاً ظهور «هنرى كيسنجر» وزير خارجية أمريكا الأسبق.. قال كيسنجر في مقال له نشرته صحيفة «وول ستريت جورنال» الأميركية: إن فيروس كورونا «سيغير النظام العالمي للأبد، وسيستمر تأثيره على مدى أجيال»، مطالباً الولايات المتحدة بالقيام بدورها في «حماية النظام العالمي الليبرالي». كما حذّر من أن الفشل في مكافحة فيروس كورنا، يمكن أن يتسبب

بدمار اقتصادى دولي غير مسبوق، بل «قد يحرق العالم»على حد تعبيره!

ويعتقد كيسنجر، البالغ من العمر 96 عاما، أن البيت الأبيض قام «بعمل جيد في تجنب الكارثة الفورية»، لكنه أضاف أن «الحكومة بحاجة للعمل بكفاءة أكبر للتغلب على المرض، ليس فقط لاستعادة ثقة الأميركيين فيها، بل ثقة العالم أيضاً».كما أكد قائلاً: «عندما تنتهي جائحة كورونا ويفرغ العالم منها، ستكون نظرة بعض البلدان لأمريكا بعين الريبة والفشل. ولن يكون حينها مُهمّاً إن كان هذا الحكم عادلاً أو موضوعياً. فالحقيقة هي أن العالم لن يكون بعد كورونا كما كان قبله».

يقول كيسنجر، الذي خدم في عهد الرئيسين السابقين نيكسون وفورد، إن «على الولايات المتحدة العمل بسرعة لإيجاد علاج لفيروس كورونا، إذ لا يمكن للولايات المتحدة التغلب على الفيروس إلا بجهد وطني محض، داعياً واشنطن إلى العمل مع بقية العالم و مؤكداً على ضرورة اقتران الجهود الحالية لمكافحة الوباء ببرنامج تعاوني عالمي. ودعا كيسنجر الإدارة الأميركية إلى العمل من أجل رفع كفاءة القطاع الصحي العالمي واستثمار المزيد من الجهود في تطوير البحث العلمي في هذا المجال مستقبلاً. وطالَب كيسنجر في نهاية مقاله، الإدارة الأميركية بقيادة الرئيس دونالد

ترامب، بالعمل على إعادة إنعاش الاقتصاد العالمي الذي تضرر كثيرا بفعل انتشار فيروس كورونا.

والحق أن ظهور كيسنجر بهذا الشكل الدرامى والخطاب المذعور إنما يشير لمدى التخوف الكبير لدَى كبار السياسيين والمفكرين وأصحاب الرأى فى أمريكا من القادم، بعد إنقشاع الأزمة، حيث سيكون على ترامب إعادة بناء الاقتصاد الأمريكي الذى تضرَّر بشدة بفعل الوباء، والأهم إعادة بناء ثقة العالَم، على حد قول كسينجر، بالنموذج الأمريكي القائم على ما يُدعَى الليبرالية الجديدة.

لم يكن تشوميسكى وكيسنجر آخر مَن ظهر لينتقد أو يدافع عن أمريكا، فقد سبقهما أوباما بظهوره الغاضب موبخاً ترامب وساخراً من سياساته الفاشلة، وطريقة إدارته لأزمة تفشى الوباء حتى تفاقمت الأوضاع، وتدهوَر الاقتصاد.

اقتصاديات الفقر والثراء

كتب المحلل مايكل ماكينزي من لندن يوم الخميس 19 مارس 2020:

عِقد من الأزمات القوية، التي تغذيها البنوك المركزية جزئيا، انتهى بطريقة مؤلمة. إذ شهد الأسبوع الماضي أكبر انخفاضات تسجلها الأسهم في يوم واحد في وول ستريت والمملكة المتحدة منذ الانهيار الكبير عام 1987، بينما سجلت البورصات الأوروبية أدنى مستوياتها اليومية.وفي غضون بضعة أسابيع فقط، فإن الأسهم القياسية وتقييمات الائتمان استسلمت إلى لحظة حساب لطالما كانت تخشاها.

وقال فريد كليري، مدير محفظة في «بيجاسوس كابيتال» معلقاً: «فيروس كوفيد – 19 هو بجعة سوداء جاءت من العدم، لكن لا يمكن إلقاء اللوم عليها بالكامل لما قد يتحول إلى فجوة طويلة في السوق. هذه السوق كانت في الأصل تعاني المشكلات قبل فترة طويلة من انتشار الفيروس.

معنى هذا الكلام، أن أسواق البورصة الأوروبية والأمريكية عانت من اللحظة الأولى، وأن الخوف الأكبر هو أن تظل تلك «الفجوة»

قائمة ثم تتحول إلى هوة تبتلع المحافظ المالية والاستثمارات والشركات؛ إذ أن هناك شركات أفلست بالفعل، والأمر لا يقتصر على صغار المستثمرين، بل كبارهم أيضاً.

حالة الذعر التى انتشرت لدى الأوساط الاقتصادية فى أمريكا، والتخوف من أن تصبح الأزمة الطارئة ذات تأثيرات جذرية بعيدة المدى وربما مدمرة، دفعت مجلة (Foreign Policy) المتخصصة فى الدراسات السياسية والاستراتيجية لاستقصاء آراء عدد من المفكرين على اختلاف توجهاتهم حول رؤيتهم للعالم بعد انتهاء أزمة وباء كورونا، بعد أن شبَّه البعض تأثيرات انتشار الوباء بأنها تماثل أحداثاً ضخمة فى التاريخ المعاصر كسقوط جدار برلين أو انهيار بنك ليمان براذرز الذى تسبب فى الأزمة الاقتصادية الكبري عام 2008م. وأنَّ من المُشاهَد للعيان كَم أثَّر الوباء على حياة الناس، وتسبَّب فى تعطيل الأسواق، والإضرار بالاقتصاد العالمي، وفضح مدى كفاءة الحكومات فى إدارة الأزمات، وهو ما قد يؤدي لاحقاً إلى إحداث تحولات دائمة في توازنات السياسة والاقتصاد، وأن العواقب والتداعيات ستكون من الضخامة والقوة بحيث يكون تأثيرها العالمى ملموساً للكافة.

فى تقرير لمجلة فورين بوليسي، تحدَّث 12 مفكراً وعالماً وأستاذاً جامعياً حول رؤاهم المستقبلية لما سيكون عليه الاقتصاد فى أمريكا والعالم، وكيف ستتأثر العلاقات الدولية طبقاً لهذه الرؤى:

1 – **روبين نيبليت – «انهيار العولمة التقليدية»**

– يشغل منصب الرئيس والمدير التنفيذي للمعهد الملكي للشؤون الدولية في لندن (تشاتام هاوس).. وكان من رأيه:

(وباء فيروس كورونا بمثابة القشة التي ستقصم ظهر العولمة الاقتصادية. لقد كان من أهداف تلك العولمة: منع الصين من الحصول على التكنولوجيا العالية ذات المصدر الأمريكي، والضغط على الدول الحليفة لها للحذو حذوها في هذا الاتجاه. وهو ما لم يؤثر على الصين وتقدمها.

إن أزمة كورونا اليوم أجبرت الحكومات والشركات والمجتمعات على فرض نوع من العزلة الاقتصادية الذاتية. وفي هذا السياق، يبدو أنه من غير المرجح أن يعود العالم إلى فكرة «العولمة» التي عُرفت في مطلع القرن الحادي والعشرين. وبدون وجود ما يحفز على حماية المكتسبات المشتركة التي تتعلق بالتكامل الاقتصادي العالمي، فإن بنية الإدارة الاقتصادية العالمية التي نشأت في القرن العشرين معرضة للتدهور بصورة سريعة. مما سيتطلب الأمر من القادة السياسيين بذل جهود عظيمة للحفاظ على التعاون الدولي، وعدم الانزلاق في متاهات المنافسة الجيوسياسية المفتوحة).

2 – **كيشور محبوبانى – «عولمة محورها الصين»**

مؤلف كتاب: «هل فازت الصين؟» – باحث فى معهد آسيا للبحوث بجامعة سنغافورة.

قال: (ليس من المتوقع أن يغير وباء كورونا المذاهب الاقتصادية القائمة بصورة جذرية، إلا أنه قد يحفز ويسرِّع تغييراً بدأ بالفعل، وهو الانتقال من عولمة محورها الولايات المتحدة الأمريكية إلى عولمة محورها الصين).

ففى حين كفر الشعب الأمريكي بفكرة العولمة والاقتصاد الكوكبي، فإن الصين لم تفقد ثقتها في فكرة العولمة؛ إذ أن قرن الذل (1842 – 1949م) الذي عاشته الصين لم يكن سوى نتيجة تهاون قادتها وجهودهم غير المجدية لعزل البلد عن العالم.

ومن جهة أخرى، فالانتعاش الاقتصادي الذي عاشته الصين في العقود القليلة الماضية كان نتيجة للمشاركة والتعايش مع العالم. إن لدى الولايات المتحدة خياران: – إذا كان هدفها الأساسي هو الحفاظ على تفوقها الدولي، يتعين عليها الانخراط في منافسة جيوسياسية صفرية مع الصين على المستويين السياسي والاقتصادي.

– وإذا كانت الولايات المتحدة تسعى للحفاظ على رفاهية مواطنيها – الذين تدهورت حالتهم الاجتماعية – فلا بد لها من التعاون مع الصين. فالرأي الأكثر حكمة هو أن التعاون يعتبر الخيار الأفضل، وإن كان من المستبعد حدوثه).

3 – **ستيفن م. والت – «الصراع قائم – تراجع العولمة – تحولات السلطة والنفوذ»**

– «أستاذ العلاقات الدولية في جامعة هارفارد الأميركية».. مجمل رأيه:

(الشيء الذي لن يتغير هو الطبيعة المتصارعة للسياسات الدولية، إذ أن الأوبئة السابقة،كالإنفلونزا الإسبانية مثلاً، لم تُنهِ الصراع بين القوى العظمى، ولم تبشر بعصر جديد من التعاون العالمي. وكذلك كوفيد19 لن يغير الكثير على هذا الصعيد. لكنه سيُسرع تحول السلطة والنفوذ من الغرب إلى الشرق، خصوصاً بعدما استجابت كوريا الجنوبية وسنغافورة بصورة جيدة مع الأزمة، بينما كانت استجابة أوروبا وأمريكا بطيئة وعشوائية، مما أضر بسمعة الغرب.

كوفيد19 من ناحية أخرى سيؤدى إلى تقوية نفوذ الدولة، وتعزيز المركزية، حيث ستقوم الحكومات بمختلف أنواعها بتبني إجراءات طوارئ تمكنها من إدارة الأزمة ما يمنحها سلطات واسعة ترفض التخلي عنها بعد انتهاء الأزمة. وباختصار، سيخلق كوفيد19 عالماً أقل انفتاحاً، وأقل ازدهاراً، وحرية. ما قد يضع الإنسانية على مسار جديد ومثير للقلق.

4 – شانون أونيل – »تغير مفاهيم التصنيع والإنتاج والإمداد والتوزيع«

– أستاذ دراسات أمريكا اللاتينية في مجلس العلاقات الخارجية. ومن رأيه:

(سيؤدي وباء كوفيد19 إلى تقويض المفاهيم الأساسية للتصنيع في العالم حالياً. وستعيد الشركات التفكير في تقليص سلاسل

الإمداد متعددة الخطوات ومتعددة البلدان خصوصاً في الدول التي تهيمن على عمليات الإنتاج والتوزيع اليوم.

فحيث تعرضت سلاسل الإمداد العالمية لهزات اقتصادية، بسبب ارتفاع أجور العمالة في الصين، والحرب التجارية التي أشعلها الرئيس دونالد ترامب. ما أدى لفقدان الوظائف وغلق المصانع فى المناطق المنكوبة. لكن على الجانب الآخر ستحاول شركات أخرى أن تتبادل الخبرات لرفع كفاءتها. وستتدخل الحكومات أيضاً لإجبار الصناعات والقطاعات الاستراتيجية على وضع احتياطيات وخطط محلية بديلة. وسوف تنخفض الأرباح في مقابل استقرار العرض).

5 – **شيفشانكر مينون – «تغير السياسات – تعاون الحكومات»**

– مستشار سابق للأمن القومي لرئيس الوزراء الهندي مانموهان سينغ، وهو يقول:

(من المبكر الحكم على التغيير الذي سيصنعه هذا الوباء.. لكن ثمة أشياء تبدو واضحة.. مثلاً: الوباء سيغير السياسات داخل كل دولة أو سياسات الدول فيما بينها. وقد ظهر أن البلدان التي تعاملت مع الوباء بصورة مبكرة وبنجاح، مثل كوريا وتايوان، كانت ديمقراطية، ولا يتحكم فيها قادة سلطويون أو شعبويون. ونحن لم نصل بعد إلى نهاية العالم المتصل والمترابط ببعضه البعض. وفيما يتعلق بالسياسة، فنحن بالفعل سائرون إلى الوراء وإلى الداخل للبحث عن الاستقلالية، إننا ذاهبون إلى عالم أصغر لكنه أكثر فقراً، وأقل وفرة).

6 – **جوزيف ناى – «هل تغير أمريكا استراتيجيتها؟!»**

– مؤلف «هل تساوي الأخـلاق شيئاً؟ الرؤساء والسياسة الخارجية من روزفلت لترامب»

يقول: (كوفيد – 19 يؤكد أننا قد فشلنا في بناء استراتيجيتنا للتعامل مع هذا العالم الجديد. فالاستراتيجية الأمنية التى أعلنها ترامب فى 2017 لن تكون مناسبة؛ فحتى إن نجحت في البقاء كقوة عظمى، فهي لن تكون قادرة على حماية أمنها بمعزل عن الآخرين. وقد لخص ريتشارد دانزج (سياسي أمريكي) المشكلة في عام 2018 حيث قال: «تقنيات القرن الحادي والعشرين هي تقنيات عالمية بطبيعتها ليس فيما يتعلق بتوزيعها فحسب، ولكن بالنسبة لآثارها وعواقبها.. فمسببات الأمـراض، وأنظمة الذكاء الاصطناعي، وفيروسات الكمبيوتر، والمواد الإشعاعية التي قد تطلق عن طريق الخطأ ستكون مشكلة على الجميع.. ولذلك لابد من الاتفاق على أنظمة وضوابط مشتركة، ومعايير ومعاهدات تضمن سلامة وأمن الجميع).

7 – **جون آلين – «المنتصرون يكتبون تاريخ كورونا»**

– «مدير معهد بروكينغز، والقائد السابق للقوات الأميركية في أفغانستان. قال:

(أن الأزمة سوف تغير بنية العلاقات الدولية بطرق لا يمكننا أن نتصورها اليوم، وسيستمر كوفيد – 19 في إضعاف النشاط

الاقتصادي، وزيادة الصراعات بين البلدان. وعلى المدى البعيد، من المرجح أن يقلل الوباء من القدرة الإنتاجية لبعض البلدان، خصوصاً إذا توقفت الكثير من الأعمال النوعية، وانفصل بعض الأفراد من القوى العاملة. والخطر بهذه الصورة قد يبدو أفدح أثراً فى الدول النامية وربما تؤدى أجواء عدم الاستقرار إلى اندلاع نزاعات واسعة داخلية أو خارجية. ورغم تباين طرق تفاعل البلدان والأنظمة مع الأزمة، فإن التاريخ الذى سيُكتب لاحقاً للمنتصرين)

8 – **لاوري غاريت** – «**تغيير جوهرى فى شكل الرأسمالية**»

– كاتبة أمريكية حاصلة على جائزة بوليتزر. قالت:

(الصدمة الحقيقية التي سيتعرض لها النظام الاقتصادي والمالي العالمي هي عندما يتضح أن سلاسل الإمداد العالمية وشبكات التوزيع معرضة بشدة للخلل. وبالتالي، فالوباء لن يترك آثاراً طويلة المدى فحسب، بل سيؤدي إلى تغييرات جوهرية. فمن المرجح أن تخرج الشركات من هذه الأزمة بقرارات حاسمة مفادها ضرورة إعادة بناء نموذج جديد لنظام الوقت المناسب (JIT). ما يفرض نمطاً من الرأسمالية العالمية تكون فيها سلاسل الإمداد أقرب إلى المستهلك النهائي، وأكثر حماية من الاضطرابات المستقبلية. وهذا التغير قد يقلل أرباح الشركات على المدى القريب، لكنه سيجعل النظام بأكمله أكثر مرونة).

9 – **ريتشارد ن. هاس – «شيوع نماذج الفشل»**

– مؤلف: «عالم من الفوضى» ورئيس مجلس العلاقات الخارجية بالولايات المتحدة.

يقول: (إن من المتوقع أن تواجه العديد من البلدان صعوبة في التعافي من آثار الأزمة، حيث قد تصبح سمة الدول الهشة والدول الفاشلة أكثر انتشاراً في العالم. ومن المرجح أن تساهم الأزمة في المزيد من التدهور في العلاقات الصينية – الأمريكية. ومن الجانب الإيجابي، ستؤدي الأزمة إلى تطوير طرق إدارة الصحة العامة. وستضعف فكرة العولمة، وستركز الحكومات على الشأن الداخلى).

10 – **نيكولاس برنس – «إعادة توازنات القوى»**

– أستاذ بكلية هارفارد كينيدي للحكومة، ونائب سابق للشؤون السياسية في وزارة الخارجية الأمريكية. وهو يرى:

(أن أزمة وباء كوفيد – 19 أكبر أزمة عالمية في هذا القرن بالنظر إلى حجم وعمق آثاره التى ستتجاوز آثار أزمة 2008 وستشكّل صدمة مزلزلة تغير النظام الدولى بصورة دائمة، وتعيد توازنات القوى التى نعرفها اليوم. واستمرار حرب التصريحات بين الصين وأمريكا سوف يؤدى لتضاؤل مصداقية البلدين).

11 – **كوري شايك – «فقدان الثقة فى النموذج الأمريكى»**

– نائبة المدير العام للمعهد الدولي للدراسات الإستراتيجي. تقول:

(لن ينظر العالم إلى أمريكا باعتبارها قائداً دولياً بعد الآن، بسبب نظرة الحكومة الضيقة لمصالحها، وضعف الكفاءة. وكان من الممكن تخفيف الآثار الدولية لهذا الوباء لو كانت المنظمات الدولية قد قدَّمت المزيد من المعلومات في وقت مبكر، والتي كانت ستوفر وقتاً إضافياً للحكومات للاستعداد وتوفير الموارد وتوجيهها في أماكنها المناسبة. ولو كانت أمريكا أكثر تنظيماً، وأقل أنانية).

12 – ج. جون إيكنبري – «الخروج من قوقعة الديمقراطية»

– أستاذ العلوم السياسية والدولية في جامعة «برينستون» الأميركية. قال:

(على المدى القريب، فإن الأزمة سترجِّح كفة الآراء المناهضة لسياسات الغرب. حيث سيرى القوميون ومناهضو العولمة، وجناح الصقور في الصين، وحتى الليبراليين الأمميين، أن الأحداث الجديدة تؤكد وجهات نظرهم. لكن على المدى الأبعد، ستحدث ردود أفعال تؤدى لظهور تيار معاكس من المناصرين بشدة لسياسة التعاون الدولي أشبه بتلك التي بدأها فرانكلين روزفلت، حيث لم يكن بإمكان الولايات المتحدة الأمريكية أن تختبئ داخل حدودها، وكان لا بد لها من أن تعمل في نظام مفتوح لمرحلة ما بعد الحرب والتي تتطلب بناء بنية تحتية عالمية للتعاون بين أطراف متعددة). إن الذى حدث أثناء الأزمة أن الدول العظمى انحازت للأغنياء والنخبويين بدلاً من الانحياز للعامة، فهل ستتغير تلك الانحيازات فى الغد؟

أعاجيب كورونا

بالمقارنة مع سائر الأوبئة عبر التاريخ، لم يكن كورونا هو الأسوأ ولا الأكثر فتكاً.. لكنه يظل الأعجب والأشهر والأشد تأثيراً على العالَم..

الأسباب هنا بعيدة عما كان مأثوراً فى علوم الوبائيات والوثائقيات والرسميات؛ حيث استطاع كورونا أن يلعب أقوى مباراة خاطفة بقوانين استثنائية خاصة، وأن يكسب جولته الأولى بالضربة القاضية. فهل يستعد العالم جيداً لجولة ثانية محتملة؟

كورونا والعالم.. أطول مباراة دولية!

استطاع كورونا استغلال وسائل الإعلام لصالحه، بحيث تصدَّر الأنباء عالمياً لمدة تقترب من نصف عام. إنها المرة الأولى فى التاريخ الإنسانى أن يحظَى وباء بمثل هذا الترصد اليومى منذ ظهوره حتى يبيت نجماً من نجوم الصحافة والإعلام، أو بالأحرَى «بعبع» الفضائيات لشهور متعاقبة.. لقد عبث الوباء بالجميع خلال مباراة كبري أدارها بنجاح..

اللاعبون الأساسيون فى تلك المباراة كثيرون.. الشعوب، والحكام، والإعلاميون، والسياسيون، ورجال المال والأعمال،

والعلماء، والأطباء، وأجهزة الأمن والمخابرات.. جميعهم باتوا لاعبين حتميين شاءوا أم أبوا..

عنصر المفاجأة كان هو العامل الحاسم فى تلك المباراة الطويلة، والتوقيت هو المفتاح لتلك الهجمة المباغتة للجائحة. إن مرض سارس أو كورونا المستحدث هو وباء قديم حدث عدة مرات خلال الألفية الحالية، وكانت هناك تحذيرات من احتمالية عودته بصورة أشد وأخطر، فلماذا لم ينتبه الحكام وأصحاب القرار مبكراً لمثل هذا التحذير؟

إنهم كانوا يتوقعون حدوث الوباء فى موسمه المعتاد، وهو فصل الربيع.. ففاجأهم الوباء مبكراً فى أول الشتاء حيث المناخ الأنسب له، وعلى غير المعتاد طالت موجة الطقس البارد لأسابيع أخرى وأتاح امتدادها انتشاراً واسعاً للجائحة.. إنه وباء يلعب بقوانينه الخاصة ولا يعبأ بتصنيفات علم الوبائيات.. فماذا لو حدثت موجة أخرى للوباء فى الخريف القادم كما يتوقع بعض المتشائمين من الخبراء والمراقبين؟ هذا يعنى 3 شهور إضافية.. فهل سيتحمل العالم موجة أخرى بهذا الطول؟

إن **الخاسرين** فى تلك المباراة كان أكثرهم من السياسيين والقادة ورجال الاقتصاد، بينما أبطال اللعبة الأساسيون كانوا هم العلماء والأطباء ورجال الأمن والإعلاميون.. هؤلاء الذين وقفوا فى مواجهة الوباء بسلاح العلم والكلمة والإخلاص لقضايا الإنسانية المجردة من الأغراض والأهواء..

المتفرجون والمشجعون فى هذا المشهد انحسروا وانسحبوا داخل الثكنات والمنازل والبيوت يتابعون صمت الشوارع ويترقبون زحف السفاح الصموت. لقد باتت الشوارع نفسها والطبيعة شواهد لا على الوباء وحده، وإنما على ما أحدثه الإنسان من ضرر جسيم على البيئة عبر أزمنة التطور الصناعى والاختناق بالعوادم والأدخنة ومخلفات الفحم والبترول والوقود النووى.

الحيوانات كانت فى المشهد من البداية.. وكانوا هم **أبطال الظل، أو اللاعبون الاحتياطيون**.. بدايةً من الخفاش الذى نشر الوباء إلى المئات من فئران التجارب ضحايا المعامل التى نشطت فى كل العالَم، وقتلت فى تجاربها آلاف الفئران..

وفى شوارع المدن الخالية ظهر مشهد طريف وغير مألوف فى عدة بلدان بالعالم، هو مشهد تدفق قطعان من الحيوانات لنهر الطريق الصامت الخاوى من تزاحم البشر! كأن الحيوانات تستطلع الأمر الغريب عليها: أين ذهب الناس؟.. لقد رصد البعض لقطات كثيرة كهذه فى كل أنحاء العالَم، والنتيجة أن الناس أصابها هلع غير مفهوم، خاصةً بعد انتشار شائعات بأن الحيوانات الأليفة قد تنقل المرض للإنسان. وبدأ كثيرون فى التخلى عن حيواناتهم وإطلاق سراحها لتهيم على وجهها فى الشوارع.. واضطرت منظمة الصحة العالمية للتأكيد على أن الحيوانات الأليفة لا تنقل المرض للإنسان

حتى ولو كانت مصابة بالفيروس، وأن الانتقال قاصر على البشر بينهم وبين بعضهم البعض.

الراعى الرئيسي لمبارة كورونا كان هو «التاريخ».. ذلك الذى لن ينسي جائحة كورونا 2020 وما أحدثته فى العالَم الذى بدا ضعيفاً معدوم الحيلة أمام اختبار وبائى لجرثومة قد تكون انتشرت بالخطأ على الأرجح.. فماذا لو أن قادة العالَم قرروا التصعيد واصطدمت القوى الكبري فى حرب عالمية أخيرة مهلكة للجميع؟ هل تتحمل البشرية مثل تلك الخيارات المدمرة لقادة فاقدين للعقل والحكمة؟

كورونا والعصا السحرية

فى دراسة اقتصادية أجراها وزير التخطيط المصرى الأسبق د/ عثمان محمد عثمان تحت عنوان: «وباء كورونا وتبعاته الاقتصادية» تحدث عن الضربات الاقتصادية الكبري خلال مائة عام، وأشدها الكساد العظيم فى ثلاثينيات القرن الماضى، والأزمة المالية العالمية فى 2008، حيث انهارت البورصات بنسبة 50٪، وتجمدت حركة الائتمان والاستثمار وأفلست الشركات وزادت نسبة البطالة فى أمريكا والدول الكبري فوق 10٪ وانكمش الناتج الإجمالى بنسبة 10٪ أو أكثر..

الأمر فى جائحة كورونا كان مختلفاً كثيراً.. وهو أشد وأفدح..

ففى حين حدثت كل تلك التغيرات الاقتصادية الهائلة فى هاتين الحادثتين التاريخيتين خلال 3 سنوات.. فإن أكثر منها أحدثه وباء كورونا خلال 3 أسابيع فقط..

لقد بدا وكأن وباء كوفيد19 يمتلك عصا سحرية يغير بها نهج العالَم فى لحظات وسويعات! وأن ما لم تستطِع أعتى الجيوش والقوى البشرية والطبيعية تغييره فى عقود وقرون، استطاع الوباء تغييره فى شهور قليلة..

فكيف رسم كورونا العالَم بعصاه السحرية؟ وما هى أعاجيبه التى صاغها بتلك العصا فورية التأثير؟

1 - تحسين المنظومة البيئة عبر العالَم:

وقفت البشرية مبهورة بما أحدثه وباء كورونا فى الطبيعة والمناخ..

مشاهد رآها الناس لأول مرة منذ عقود، لشمس تظهر فى بلدان معدومة الشمس.. وأدخنة تنقشع وغبار ينجلى فى مدن لا ينقطع عنها الضباب.. ورغم الشتاء وما يحدثه من شبورة هائلة.. استيقظ الناس على أجواء رائقة صافية وأفق شفاف بارع المنظر فتساءلوا فى دهشة: أين ذهبت الشبورة؟

كأن المتهم الأول بالغمام الذى ظلَّل العالَم هو الإنسان..

السائرون فى الشوارع الخالية ممن خالفوا الحظر، أو كان مسموحاً لهم بالتجوال رغم الحظر قالوا: أنهم لم يشهدوا أجواءً بمثل هذا الجمال الساكن الصموت منذ عهود بعيدة. كأنهم عادوا بالزمن عشرات السنين للوراء.

ولأول مرة تعلن الأرصاد العالمية اختفاء ثقب الأوزون الذى أعيا قادة العالَم نقاشاً فى مؤتمرات بيئية متعاقبة فشلت جميها فى

القضاء على الثقب.. فإذا عصا كورونا السحرية تأتى لترتق الثقب فى أقل من نصف عام من صمت المصانع!

2 – تهديد النظم والقوانين:

قادة العالَم جميعهم باتوا فى اختبار سياسي إجبارى بفعل الجائحة..

الدول التى فشلت فى إدارة الأزمة سوف يتعرض قادتها لحساب عسير من شعوبهم فى أى انتخابات قادمة. زعماء آخرون استطاعوا استثمار الجائحة لتعزيز وضعهم سياسياً بنجاحهم فى إدارة الأزمة باقتدار.

لأول مرة تخرج الشعوب للمطالبة بحظر تجوال اختيارى.. ثم تخرج مرة أخرى للمطالبة بالتحرر وفك الحظر! وبات الجميع يحفظون قوانين ولوائح الوباء أكثر من أى قانون وضعى آخر.

وبفضل الجائحة وصل الصدام بين أمريكا والصين إلى ذروته، وفقد الملايين من الأمريكيين والأوروبيين وظائفهم إما بشكل دائم أو مؤقت. وبات البعض الآخر يدير أعماله إليكترونياً دون الحاجة إلى شركات وغرف ومكاتب. كأن الجائحة قد أعادت النظر فى النظم والقوانين الاجتماعية الحاكمة للعلاقات البينية سواءً فى دنيا المال والأعمال أو حتى على المستوى الإنسانى..

وتحت وطأة الضغوط التى أحدثها تفشى الوباء بين الأمريكيين، وحساسية وضع ترامب فى انتظاره للانتخابات الرئاسية القادمة، قام

ترامب بمعاداة الإعلام المحلى وتحجيم السوشيال ميديا بعد صدام مع شركة تويتر، ثم ختم الأمر بالإعلان عن إنهاء علاقة بلاده مع منظمة الصحة العالمية، واضطر الكونجرس لمناقشة تعديل قانون أمريكي عمره مائتى عام! ناهيك عن النزيف الاقتصادى السريع لأقوى اقتصاديات العالَم.. كيف حدث هذا إلا بفضل لمسة من عصا سحرية عجيبة؟!

3 – انهيار العولمة وتداعِى الحوكمة:

النظام العالمى قائم على بناء راسخ متراكم من الثقة الدولية لدى البلدان قيادةً وشعباً تجاه المنظمات الدولية بمختلف فروعها وتخصصاتها، فإذا انهارت تلك الثقة انهارت معها الأسس التى قامت عليها تلك المنظمات..

فى أوروبا حدثت صدمة اجتماعية هائلة لدى تعامل الاتحاد الأوروبى مع تداعيات جائحة كورونا. فوجئ الناس بأن أولويات أوروبا اقتصادية بامتياز، وأنها تؤثر الأثرياء على الضعفاء والفقراء وعلى الفئات الأكثر احتياجاً للعون..

رأى الناس كيف أشاحت أوروبا وجهها عن إيطاليا طويلاً دعماً لليورو لا للبشر الذين طبعوا اليورو وحملوا غطاءه الذهبي على أكتافهم الدامية.. إنه نفس الاختيار الأنانى الخاطئ للإدارة الأمريكية لأزمة كورونا، حيث إيثار الاقتصاد على البشر.

كل هذا كان ملموساً لشعوب الدول الغربية ولهذا فقدوا الثقة فى منظومة العولمة والكيانات الاتحادية غير الفعالة، لقد اكتشفوا أن مزاعم التعاون والتحضر والانحياز للقيم الإنسانية مجرد قشرة زائفة وقناع يخفى حقيقة مخالفة. لقد جاء على لسان سياسيين وقادة ومواطنين أوروبيين أنهم فقدوا الثقة فى الاتحاد الأوروبى، وأن هذا انسحب على نظرتهم للنظام العالمى بأكمله..

الغريب أن يسهم زعماء العالَم فى تقويض تلك الثقة لدى الشعوب، وهو ما حدث خلال صراع ترامب مع منظمة الصحة العالمية.. فحتى لو استجاب ترامب لدعوة الاتحاد الأوروبى للعدول عن قراره بقطع علاقة أمريكا بمنظمة الصحة العالمية بعد خطوة سابقة بقطع الدعم المالى عنها، فإن ثقة الدول والشعوب فى هذه المنظمة قد تزعزع للأبد. وقد يخبو تأثيرها ودورها خلال سنوات..

والسؤال الذى يتردد هنا: هل يكون مصير منظمات أخرى كالأمم المتحدة والمحكمة الدولية مصيراً مشابهاً لمنظمة الصحة العالمية، فتنهار على أيدى منشئيها أنفسهم؟

ماذا بعد؟

سؤال يتردَّد اليوم بين ملايين البشر فى كل مكان..

ماذا بعد خمسة أشهر كاملة، هل سيختفى الوباء؟ وكيف ستنتهى الجائحة؟ هل يظهر علاج قوى ولقاح فعال يقضى على الجائحة

قضاءً نهائياً مبرَماً، أم يظل الوباء باقياً يذهب ويعود ويزحف ويقتل كما يشاء؟

ماذا بعد أن قررت الدول فتح الأسواق وأقرت خططاً للتعايش مع الجائحة؟ هل ستحدث طفرة فى أرقام الإصابات، أم تحدث المعجزة وتنجلى الأزمة فجأة كما ظهرت فجأة؟

إن منظمة الصحة العالمية قد حذرت من احتمالية حدوث موجة أو عدة موجات أخرى للجائحة، وخرج علينا عدد من العلماء والباحثين بتحذير آخر من أوبئة أشد فتكاً قد تظهر فى المستقبل، فكيف سيتصرف العالَم تجاه تلك التحذيرات والتهديدات المحتملة؟ هل سيواجهها بالتجاهل كما حدث فى بداية أزمة كورونا أم يستعد لها، وكيف يكون هذا الاستعداد؟

خبراء الاقتصاد يؤكدون أن الوضع الاقتصادى العالَمى سيظل متأرجحاً ما لم يظهر علاج أو لقاح نهائى يشيع الطمأنة فى نفوس المستثمرين. بينما تؤكد أشد التوقعات تفاؤلاً أن مثل هذا اللقاح لن يظهر إلا فى نهاية 2020 على أقرب تقدير.. فهل يحتمل الاقتصاد العالمى استمرار الأزمة الاقتصادية لعدة شهور أخرى؟ وكيف ستتمكن الدول من تعويض خسائرها الهائلة جراء الوباء؟

لا أحد يستطيع حسم مثل تلك الأسئلة، لكن الاجتهاد فى إجابتها قائم ومشروع..

١ - كورونا وكلمة النهاية:

تضاربَت الأقاويل والتوقعات حول مصير وباء كوفيد 19..

الصين ومنظمة الصحة العالمية حذرتا من موجات تالية من الوباء..

فخرج أطباء أوروبيون ممن اعتادوا أن يسيروا على تصريحات المنظمة بممحاة عريضة يؤكدون خطأ هذا الادعاء، وقالوا: أن الوباء سوف ينتهى تلقائياً بشكل نهائى وقاطع وبلا موجات تالية، فكيف قطعوا بمثل هذا الاستنتاج معدوم الأسس والبراهين؟

جوهر الخلاف القائم الآن بين توقعات المراقبين ينحصر فى تساؤل محورى هو: هل سينتهى الوباء بشكل تلقائى وفقاً لمعطيات مناعة القطيع، أو وفقاً لمعطيات أخرى؟ أم يظل انتهاؤه رهناً بظهور لقاح نهائى للمرض؟

الأمل المنعقد لدَى أكثر زعماء العالَم أن الوباء فى طريقه للاختفاء التلقائى طبقاً لعدة أدلة ومعطيات أهمها: ارتفاع الحرارة فى عدد من البلدان وهو ما قد يضعف من فاعلية الفيروس وعدوانيته، كذلك ما تم ملاحظته من انخفاض معدلات الإصابة والوفيات بشكل تلقائى ودون تدخل فى أكثر البلدان التى تمثل بؤراً نشطة للوباء، وهو ما يشي بإمكانية انحسار المرض تلقائياً مع مرور الأيام والارتفاع المتزايد لدرجات الحرارة..

هذا وقد أعلن طائفة من الأطباء الأوروبيين فى بريطانيا وإيطاليا من خلال مشاهداتهم ومتابعتهم اليومية للحالات أن فيروس كورونا اليوم أكثر ضعفاً وأقل عنفواناً من شهرين مضيا، منهم الطبيب الإيطالى البارز «ألبرتو زانجريلو» مدير مستشفى سان رافاييل بميلانو الذى صرح قائلاً: «أن الفيروس لم يعد موجوداً إكلينيكياً فى إيطاليا» وأن المسحات الأخيرة أظهرت ضعفاً واضحاً للفيروس سواءً من حيث الكمية أو الشكل. كما أن الأعراض التى يسببها الفيروس اليوم أقل عنفاً مما كان سائداً منذ أسابيع مضت..

إن تلك التصريحات يدعمها اختفاء مشاهد الفيديو المفزعة التى تابعها الناس فى بداية انتشار الجائحة، حيث كان الناس يتساقطون فى الشوارع قتلَى أو منهارون.. تلك المشاهد التى اختفت اليوم ولم يعد أحد يرى مثلها..

لقد ساد اليوم الكلام عن صنفين من الكورونا: الثقيل والخفيف.. أى الأكثر والأقل عدائية. وأن الصنف الثقيل بدأ فى الاختفاء شيئاً فشيئاً، بل والمبشر فى الأمر، أن الإصابة بالفيروس الخفيف تمنح حصانة ومناعة ضد النوع الثقيل لعدة أسابيع.. وهو ما يراد تحقيقه من منهج «مناعة القطيع»..

إنه وبرغم فتح الأسواق والانتهاء التدريجى للحظر، فإن المؤشرات تقود لرجحان انتهاء الوباء بإذن خالقه بشكل تلقائى

تدريجى.. مع احتمالية عودته فى شكل موجات فى البؤر القديمة، أو ظهور بؤر جديدة هنا وهناك.. ما لم يظهر علاج أكيد أو لقاح آمن قريباً.

٢ - تحولات السياسة والاقتصاد:

صحيح أن الثقة فى المنظمات الدولية والقوى الكبري ضعفت.. وصحيح أن الأزمة دفعت دول العالم للاعتماد أكثر على اقتصادها المحلِّى ما يفرض نوعاً من العزلة الاقتصادية المؤقتة.. وصحيح أن العولمة الاقتصادية مهددة بالتدهور فارضةً أشكالاً جديدة من خرائط الإمدادات والتوزيع والإنتاج الاقتصادى لتقليل الاعتمادية على جهات إنتاج بعينها كالصين.. لكن السؤال: متى وكيف تحدث مثل تلك التغيرات؟

إن العالم ليس مستعداً لتغيير نمط حياته المعتاد بسهولة، خاصةً مع انعدام وجود بدائل منطقية قريبة المنال.. وربما لا يحدث تغيير كبير فى نمط التعاملات الاقتصادية العابرة للحدود على عكس المتوقَّع.. على الأقل فى المدى القريب..

ورغم أن تقديرات نزيف الخسائر العالمى إثر الجائحة وصلت إلى 9 تريليون دولار، لكن الحصر النهائى لحجم الخسائر لا يمكن القطع به إلا فى حالة ظهور علاج أكيد، أو انتهاء الوباء بشكل نهائى. هذا ما يذهب له تقرير د/ عثمان محمد عثمان، وهو يذهب لأبعد

من هذا حيث يؤكد أن الاقتصاد العالمى قادر على التعافى السريع شريطة وجود نهاية قطعية للوباء. بينما لو ظل الأمر على ما هو عليه من حالة التأرجح والضبابية، وعدم وجود مؤشر واضح للتوقعات الاقتصادية خلال عامين قادمين، سيصبح من الصعب حفز الأعمال على الاستثمار والتشغيل والاستمرار.

٣ - معارك الانتهازيين والرقباء:

إن التحولات السياسية والاقتصادية سوف تعيد تقسيم شرائح المجتمع وتفاعلاته وفقاً لأنماط جديدة تتفاوت بين انتهازية وأنانية وتغليب لمنطق القوة والهيمنة. وبين رقباء يحاولون كبح أطماع هؤلاء الانتهازيين.

إن الأزمة أفرزت بالضرورة عدداً من مستثمرى الأزمات وأثرياء الحروب ممن لا يكترثون إلا للغة المال دون غيرها سواءً على مستوى الأفراد أو الشركات أو الدول.. هكذا سيكون على الضعفاء الاستعداد للابتزاز الذى من شأنه أن يعيد التوازنات الاقتصادية طبقاً لمعايير أكثر توحشاً وأقل رحمة.

خلال الأزمة بدَت الصيحات الجماهيرية مؤثرة فى أوروبا والغرب، مما يشي بتحول الشعوب الأوروبية والغربية إلى رقباء محتملين لأداء الحكومات والنظم. تلك الشعوب لديها من الثقل ما يمكنها من القيام بهذا الدور..

الخوف الأكبر هو على الدول الأفريقية والعربية من الانتهازية الغربية والأوروبية؛ إذ أن الأرجح هو أن تعويض الخسائر الاقتصادية للدول الكبري سوف يكون حتماً على حساب الدول الأضعف.

٤ - كورونا والفوضى الخلاقة:

إن ما أحدثه كورونا فى شهور جدير بالدراسة والتحليل والتأمل..

هناك تغيرات اجتماعية وسياسية واقتصادية وإنسانية وعقائدية جذرية حدثت للمجتمعات والشعوب والنظم. تلك التغيرات قد تدوم، وقد تتسع وتمتد فى آثارها فتحتاج لمن يتابعها زمنياً ويرصدها عبر رحلة تطورها اللاحقة..

هناك تأثيرات نفسية وعاطفية وفكرية وعقائدية واسعة النطاق حدثت لدى الناس خاصةً من أصيبوا بالوباء ونجوا منه، أو من احتكوا بالمصابين ويأتى فى مقدمتهم العاملون فى القطاع الصحى ممن لمسوا آثار الجائحة عن قرب..

الملاذ الآن يكمن فى المفكرين والفنانين والأدباء والعلماء.. هؤلاء هم من استطاعوا التنبؤ بالوباء منذ سنوات مضت، ومنهم أدباء عرب مثل الطبيب الروائى السودانى «أمير تاج السر» فى روايته «إيبولا76» وغيرها من الروايات التى استشرف بها المستقبل. إن قراءة المآلات المحتملة لوباء كورونا وغيره من أوبئة محتملة إن لم تدعمه معلومات وحقائق قاصرة عن قراءة احتماليات المستقبل،

فلا بد لشئ من الخيال يضم خيوط الأحاجى لينسج منها نبوءة أو نصيحة..هكذا يكمل الفن والأدب ما بدأه العلم..

أمريكا زعمت قديماً على لسان كونداليزا رايس أنها قادرة على إحداث فوضَى عالمية خلاقة تظل بها مهيمنة ومحافظة على وضعها العالمى كشرطى للعالم.. فكيف بأمريكا الآن وهى تبحث عمن ينقذها؟.. هل كان الفيروس المجهرى أقوى من أقوى دول العالم فى قدرته على إحداث فوضَى خلاقة حقيقية؟

هناك فوضَى وارتباك الآن فى كل مكان بالعالم.. الدول اتخذت قراراً بعودة الحياة رغم تضاعف الإصابات رغم عدم إمكانية التنبؤ بتداعيات هذه الخطوة، هذا دليل ارتباك وحيرة. فالعالم أمسي بين خيارين كلاهما صعب: أن يستمر الحظر ومعه يستمر النزيف الاقتصادى، أو المغامرة بالتخفف من الحظر مهما كانت التداعيات والنتائج. تلك الفوضَى خلقت وضعاً جديداً أسماه العالم: «التعايش مع كورونا» وأسماه البعض الآخر تهكماً: «دعاوَى التطبيع».

٥ - خطط التعايش مع كورونا، ما مآلاتها؟

طبقاً لأرقام الإصابات فى العالم منذ بدء الجائحة، فإن العامل الرئيسي لانتشار الوباء كان هو الانتقال العشوائى للحالات عبر الحدود والطرق السريعة، وهو ما يسهم فى بث الوباء فى عدة بؤر يصعب السيطرة عليها..

الرهان الآن على ثلاثية الوعى الجماهيري والإجراءات الرسمية التنفيذية وحقيقة أن الفيروس يضعف وأن مناعة الناس تزداد..

تظل هناك نسبة أخرى من الجمهور المقتنع بضرورة الالتزام بالتمديد الذاتى للحظر. وهؤلاء لابد أنهم من الموثرين والأغنياء ممن يستطيعون الإنفاق من فائض مدخراتهم. فماذا عن الغالبية ممن انتظروا فك الحظر على أحرّ من الجمر حتى يستعيدوا أعمالهم ومصالحهم المالية التى تضررت خلال فترات الحظر؟

إن هؤلاء ليس أمامهم سوى الخوض فى تيار الطريق المزدحم محاولين اختراقه وصولاً إلى أرزاقهم الصعبة دون أن يتعرضوا للخطر المحدق فى كل ركن وزاواية.

أما هؤلاء الذين سوف يؤثرون السلامة والالتزام بتمديد الحظر، فإن الإعلامى د/ جمال الشاعر قد وضع للمتزوجين منهم روشتة للتعايش فى مقال له بجريدة الأهرام، فيقول مازجاً الجد بالمزاح والفصحى بالعامية: (.. ينصح الخبراء فى هذا المجال باتباع الوصايا التالية للتعايش السلمى فى زمن الكورونا: أولاً.. غيّر عاداتك فيما يتعلق بالقهوة والنسكافيه واحرص على تناول المشروبات المهدئة مثل الينسون والنعناع والشمر والكركديه والدوم وخلافه. ثانياً.. اقتنِ جهازاً لقياس ضغط الدم المرتفع وجهز صيدليتك المنزلية بمستلزمات الإسعافات الأولية تحسباً للطوارئ ألف لا قدّر الله.

ثالثاً.. لا تقترب من عرين المرأة والتدخل فى شئون المطبخ إلا إذا تم تكليفك بمهام محددة مثل غسل الأطباق. رابعاً.. لا تتدخل فى الشئون العائلية ودع كل عضو فى العائلة ينظم حياته على طريقته. خامساً.. شقلب مواعيد نومك واجعلها عكس أوقات نوم الجميع حتى تجد لنفسك بعض الوقت لتصفح الفيسبوك وتبادل الرسائل فى مأمن عن عمليات المداهمة والتفتيش المفاجئ. سادساً.. اعتمد على نفسك فى اكتساب مهارات التعامل مع الأجهزة الرقمية. سابعاً.. اختر ركناً هادئاً معزولاً كى تجرى فيه أعمالك على الفيديو كونفرانس. ثامناً.. احذر أن تقف أمام الكاميرا فجأة حتى لا يظهر بنطلون البيجاما تحت القميص والكرافتة. تاسعاً..مارس بعض التمارين السويدى.عاشراً.. كلمة حاضر تريح المدام جداً ويمكن استخدامها كلما ارتفع سقف الطموحات عند السيدة قرينتك. حادى عشر.. أضف إلى تصرفاتك لمسة رومانسية بإظهار التأثر بأغانى كاظم الساهر وأفلام الغرام الهندى المبالغة. ثانى عشر.. مارس هوايات جديدة لشغل وقت الفراغ مثل تربية العصافير والأسماك وتنسيق الزهور. ثالث عشر.. تجنب حديث الذكريات..رابع عشر.. فتش عن أصدقائك القدامَى.. خامس عشر.. تقرب إلى الله بالصلاة والأوراد فى تلك الأيام الصعبة. سادس عشر.. لابد من الاطلاع جيداً على اتفاقية جنيف لحقوق الأسرى والرهائن المكفولة بقوانين الأمم المتحدة والأعراف الدولية. سابع عشر.. احفظ عن ظهر قلب

كل أرقام الطوارئ على سبيل الاحتراز وتعامل مع الأمر كما لو أنك سجين احتياطى يرتدى ملابس بيضاء أو الترنج الأبيض. ثامن عشر.. اعمل بنصيحة الرئيس روزفلت: «تكلم بهدوء وأمسك عصا غليظة».. تلك مقاربة طريفة للغة التخاطب عبر السوشيال ميديا، تلك التى تختلط فيها المقاصد بالمساخر.. وربما أضيف نصيحتين أخريين لإتمامها عشرين: (تاسع عشر: لا تنصت لكل شاردة وواردة.. ولا تكن أذناً ولا مصدراً لأى شائعة مغرضة.. عشرين: انزل لنهر الطريق، واختر أبعده عن بيتك وأقربه للأفق الطازج، ثم تنفس بعمق كأنك لم تتنفس قط من قبل!).

إن اللائذين برحمة الله يتنسمون الأمل القائم فى قرب انحسار الأزمة وانقشاع الغمة، وربما كانت الرحمات أقرب للناس مما يأملون..

بعد نهاية الأحداث.. هل ننتظر أحداث النهاية؟

فى الآونة الأخيرة تعالت الصيحات التى تنذر باقتراب نهاية العالم..

وجاء الوباء ليرفع وتيرة تلك الصيحات.. والناس فى قلق وخوف وترقب وتساؤل: ما الذى قد يحدث غداً؟ ولا جواب يشفى قلقاً حول غَيبٍ حُجِبَ عن الكافَّة.

إن هذا الرعب والفزع لدى الناس له مبررات: كمتوالية الحروب والكوارث خلال السنوات الأخيرة الماضية، ومتوالية الظواهر الكونية الغريبة. ومتوالية الموت الذى استحرَّ فى الناس بالدانات والقنابل والفيضانات والسيول والحرائق والزلازل، ثم بالوباء. وكل هذا حدث فى التاريخ مثله وأكثر. وكان التفسير مماثلاً: أننا فى انتظار النهاية. فما الجديد؟ إن كل إنسان فى انتظار نهاية محتومة ومكتوبة منذ الميلاد. وقد اختصر الشاعر القديم المسألة كلها فى بيت شعر: (مَن لم يمت بالسيف مات بغيرِهِ.. تعدَّدت الأسبابُ والموتُ واحد). والوباء أثبت أنه لا يُعجِّل من نهاية أحد ولا نهاية العالَم.. هناك قصة المريض الفرنسي التسعينى الذى أصيب بالوباء هو وزوجته، ثم خرجا معاً بعد ثلاثة أيام وقد عوفىَ كلاهما. ومريض

مصرى دخل المستشفى للعلاج من كورونا فمات بالسكتة. وفى كل مائة مصاب يموت ثلاثة ويعيش الباقون. وهناك 15 دولة لم يدخلها الوباء، وآلاف القرى والمدن والجزر لم يعرف الوباء لها طريقاً.

إن الوباء أسهَمَ، رغم كل ما أهلكه من رئات، فى خلق رئة جديدة للكون، ودفع الناس لاكتشاف عالم جديد يعمه الهدوء والنظافة والاتساع والرحابة.

وهو ما قد يجبر الدول المتقدمة المتنصلة من دورها البيئى على أخذ قضايا البيئة مأخذ الجد.

عودة الضمير

يعتبر البعض أن كتاب (الربيع الصامت) لمؤلفته «راتشيل كارسون» والصادر عام 1962 وترجمه للعربية الدكتور أحمد مستجير، هو البداية الحقيقية لخلق الوعى العالمى بقضية البيئة؛ فمنذ صدور ذلك الكتاب بدأت جهود العلماء والمثقفين تؤتى ثمارها بالتفات الساسة وقادة الفكر لهذه القضية واعتبارها من القضايا العالمية المحورية. هكذا انعقد المؤتمر العالمى الأول للبيئة فى ستوكهولم عام 1972، واستمر انعقاد نسخ أخرى من هذا المؤتمر كل عدة سنوات مع استمرار المشكلة البيئية وتفاقمها! ما يجعل تلك المؤتمرات تبدو بلا جدوى. نشأ من خلال تنامى الحراك البيئي العالمى ما يُدعَى «بالضمير البيئى»، أى الاستشعار المشترك

لتلك القضية الخطيرة لدى القادة والحكام. وهو ما كان سبباً مباشراً فى ظهور منظمات حكومية ومستقلة تدعو للالتفات إلى قضايا قد تحدد مصير البشرية لأهميتها القصوى وخطورتها: كقضية التغير المناخى، وتأثير التجارب العسكرية والإشعاع النووى، والاحترار الكونى تأثراً بالاتساع المضطرد لثقب الأوزون، وموجات تسونامى المهلكة تزامناً مع الانهيارات الثلجية فى القطبين.

قضايا أخرى بدأت فى التوالى والتتابع، دون وجود حلول آنية، فالعقلية الأنانية ما تزال هى المسيطرة والمتغلبة على الضمير العلمى والبحثى المتألم والمنذر بكوارث ما نزال نطالع أخبارها من حين لآخر! فأين يكمن الخلل؟ ولماذا لا تسهم المؤتمرات العالمية المتكررة واللقاءات المتعددة لقادة العالم المتقدم فى تحجيم المشكلة؟ وما السبب فى أنهم غير قادرين على التوصل إلى حلول قطعية ناجعة؟ هناك سر!

إن مدى اتساع الفجوة الحضارية والأيديولوجية محكوم بسرعة تصرف الدول الصناعية الكبري التى تسببت فى تعاظم المشكلة البيئية وبروزها بالأساس؛ بفضل رعونتها فى التعدى على النظام البيئي المتوازن بعوادم المصانع والمخلفات النووية والصيد الجائر للحيوانات والقطع الجائر للغابات وتفتيت الجبال الرواسي بحثاً عن المعادن الثمينة والثروات. هناك عشرات القضايا البيئية التى

اختفى ذكرها فى زحام كوارث بيئية لها صدى عالمى أكبر، رغم أنها قضايا شديدة الأهمية والتأثير على صحة الإنسان العضوية والنفسية، مثل قضية تلوث المياه بالمخلفات الآدمية والصناعية، والضوضاء، والتصحر، والنباتات المعالجة وراثياً، والمبيدات الكيماوية المسرطنة، والملوثات الكيماوية التى يتعرض لها عمال المصانع. كلها قضايا مجتمعية مزمنة شديدة الأهمية يختفى ذكرها أمام كوارث البيئة أو جرائم الإنسانية ضد الطبيعة.رغم أن فاتورة العلاج البيئى مكلفة، إذ تبلغ تكلفة معالجة تلوث الهواء وحده ما يزيد عن 200 مليار دولار!

ومقابل تلك الحرب التى يشنها الإنسان على الكوكب، تعلن الطبيعة ثورتها وغضبتها فى شكل متوالية من الكوارث. هذا ما بَدا خلال العقدين الأخيرين.. ففى عام 2004 حدث زلزال تسونامى سومطرة الذى قتل أكثر من 283 ألف شخص، وزلزال جاوة فى 2006 الذى دمّر نحو 135 ألف منزل وقتل ما يزيد عن 5500 إنساناً! ناهيك عن الأعاصير والفيضانات والسيول التى لا يختفى ذكرها من أشرطة الأخبار فى الفضائيات.

لقد سجلت أمريكا نحو 40 كارثة طبيعية مدمرة فى الفترة من 1974 حتى عام 1980تضرر من جَرّائها أكثر من نصف مليون نسمة. هذه الأرقام تضاعفت خلال العقد الأخير بينما أمريكا نفسها

تنسحب من اتفاقاتها العسكرية والبيئية. فالإشكالية الأكبر أن الغرب يشهد صعوداً لليمين المتطرف، وظهوراً لزعامات لا تعبأ بقضايا البيئة ومستقبل الإنسانية. وهنا مكمن الخوف.

يذكر علماء الإيكولوجى أن طائفة من علماء القرن التاسع عشر أطلقوا صيحة جديدة فى علوم الاجتماع تُدعَى «الحتمية الجغرافية»، ومعناها التسليم بأن الأوضاع المناخية والجيولوجية تفرض على الناس نمطاً محدداً من الحياة الاقتصادية والسلوكيات وأسلوب الحياة. تلك الحتمية اختفت اليوم من الكتابات الإيكولوجية بعد أن أثبتت الدراسات الأكثر عمقاً أن العامل الجغرافى هو مجرد رقم بين عوامل أخرى شتى تحكم نمط الحياة البشرية فى مكان ما؛ عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية كثيرة. أى لا حتمية هناك، بل تغير وتطور وتباين.

وفى كتابات «كـارل ماركس» كلام عما يُدعَى «الحتمية الاقتصادية» تبريراً للماركسية وتمريراً للمبادئ الشيوعية فى إدارة النظم الاقتصادية والسياسية. ومع انهيار الاتحاد السوفيتي وأفول الشيوعية ماتت الحتمية الاقتصادية المدّعاة. وباتت المرونة الاقتصادية هى السائدة.

والأحداث المعاصرة ذات الطابع الغرائبي المخالف لما عهدناه فى الكلاسيكيات التاريخية تشهد على موت «الحتمية التاريخية»:

أن التاريخ يكرر نفسه فى حلقات متماثلة متشابكة. وهو الادعاء الذى أثبت الحاضر خطأه، وأن هناك تاريخ جديد تتم كتابته اليوم على أسس مختلفة.

غير أن هناك حقيقة واحدة نعرفها ونوقن بها، هى حقيقة التوازن الطبيعي للكون. وأن هناك سنن كونية فوقية لإحداث مثل هذا الاتزان. حتى أن نظرية «الاحترار الكونى» القائمة على أن ثقب الأوزون المتسع يتسبب فى ارتفاع درجات حرارة الأرض تواجه اليوم نظرية مضادة يتزعم مزاعمها «إيان بليمر» فى كتابه «العلم المفقود» حيث يدعى أن ثلاثين عاماً من الارتفاع البطئ فى درجات الحرارة تم محوها فى بضع سنوات من الانخفاض السريع لها. والدليل ما حدث فى عام 2008 – أكبر موجة باردة واجهت الأرض منذ عدة عقود، حيث سجلت مؤشرات الأرصاد الأمريكية فى مينيسوتا وبنسلفانيا رقماً قياسياً جديداً فى درجات الحرارة بلغ (40– درجة مئوية)! وفى اسكتلندا وانجلترا أغلقت العواصف الثلجية الطرقات والمدارس، وتسببت تلك العواصف فى موت 60 شخصاً فى الصين، كما دمرت نحو نصف محصول الأرز فى فيتنام. كانت أطول موجة باردة مرت على العالم، وتكررت هذه الموجة فى 2012، فهل تمثل موجات الابتراد المتتالية نوعاً من التوازن الكونى فى مواجهة الاحترار الذى تسبب فيه الإنسان؟!

إن الادعاءات القائلة بتناقص سلة الطعام وندرة المياه وتقلص الموارد أمام تضاعف سكان العالم، تواجهها مُكتشفات حديثة لعوالم جديدة فوق الأرض فى ثنايا الجبال والكهوف، وتحت الأرض مثل تلك القارة التى أشار إليها العالم الطبيعى «وليم ويب» الذى اكتشف الغابة المطرية(كانوبي) عام 1917. وجاءت الاكتشافات الحديثة لعالم الأعماق لتؤكد وجود هذه القارة على مسافة 1000 متر من سطح المحيط! فأمام غياب الحتميات يأتى التوازن كحقيقة حتمية وحيدة ومؤكدة.

كل شئ تغير فى مائة يوم

لم تستطع حكومات العالم المتقدم السيطرة على ثقب الأوزون المتسع طيلة عقود من اجتماعات شكلية ومؤتمرات بيئية زائفة. بينما استطاع الوباء حل الأزمة فى شهور!

لم يعد لثقب الأوزون الماثل فوق القطب الشمالى وجود. بعد أن توقفت المصانع، وصفت الأجواء، وخلا الهواء من الأدخنة والأبخرة والعوادم.

فى مائة يوم قضاها العمال فى البيوت بدلاً من المصانع تحولت مدن بأكملها من مدن للضباب والغبار إلى مدن صافية الأجواء ناصعة الأفق!

إن العالم واجَه نفسه، ووقف وقفة مصارحة طويلة أمام أخطاء عصر الصناعة، وخطايا التقدم المزعوم. وقفة أجبره عليها الوباء.

فهل يعود العالم لاقتراف نفس الأفاعيل والرذائل بعد انقشاع الأزمة؟

وهل يعاود ثقب الأوزون الظهور بعد فترة من فتح أبواب المصانع؟

لولا الأمل لانفطر الفؤاد

وسط تيارات الأخبار المرعبة والحزينة والمؤلمة، صفحات من أخبار تبث الأمل فى مستقبل أفضل تنتهى فيه الحروب والصراعات وينجلى فيه الوباء وتعود الحياة أفضل وأنظف وأنصع مما سبق.

هذا ما تعمَّدت صحيفة ذا صن البريطانية أن تبثه لتُخرج الناس من همومهم ومخاوفهم، فدفعتهم للحديث عن مستقبلهم فى العمل.. فتحدث البعض عن تقليل ساعات العمل، وآخرين عن استمرارية فكرة العمل من المنزل، وآخرين عن فكرة الاستغناء عن السيارات حرصاً على توفير هواء نظيف..

كانت تلك طريقتهم فى دفع الخوف والحزن والملل..

بثنائية الأمل والعمل.

مصادر ومراجع

- الفيض (أمراض الحيوانات المعدية، وجائحة الوباء التالية بين البشر) – كتاب من جزئين – تأليف/ ديفيد كوامن – ترجمة د/ مصطفى إبراهيم فهمى – سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب – الكويت – 2014.
- الأوبئة والتاريخ (المرض والقوة والإمبريالية) – تأليف: شلدون واتس – ترجمة وتقديم: أحمد محمود عبد الجواد – المركز القومى للترجمة بالهيئة المصرية العامة للكتاب – ط أ – 2010.
- اللانظام العالمى الجديد(تأملات مواطن أوروبى) – تزفيتان تودوروف – ترجمة: محمد ميلاد – دار الحوار بدمشق،سورية – ط أ – 2006.
- بناء الكون ومصير الإنسان(نقض لنظرية الإنفجار الكبير – حقائق مذهلة فى العلوم الكونية والدينية) – هشام طالب – دار المعرفة، بيروت، لبنان – ط أ 2006.
- وكأنها ديمقراطية «القوة الناعمة الأمريكية» – محمد شمس عبد الشافى – الهيئة العامة لقصور الثقافة – إصدارات خاصة – ط أ 2019.

- الحرب الكونية الثالثة (عاصفة سبتمبر والسلام العالمى) - السيد يس - مكتبة الأسرة، مهرجان القراءة للجميع - 2003.
- البصمة الإيكولوجية (قضايا فى البيئة والحضارة) - د/ أحمد مصطفى العتيق - الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر - سلسلة الثقافة العلمية - ط أ - 2018.
- لماذا تقتل نفسك - د/ محمد فتحى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - سلسلة العلم والحياة - 2003.
- نشوء وسقوط القوى العظمى - ترجمة مالك البديرى - الأهلية للنشر والتوزيع - عمان الأردن - ط ثالثة - 2007.
- تأملات فى دنيا الله - د/ مصطفى محمود - كتاب اليوم، قطاع الثقافة - 2002
- القوى الخفية - أنيس منصور - المكتب المصرى الحديث - ط 3 - 1979.
- عالم ما بعد أمريكا - فريد زكريا - ترجمة بسام شيحا - الدار العربية للعلوم - لبنان - بيروت - ط أ - 2009.
- حوادث خارقة للطبيعة - سمير عبد الكريم - دار قتيبة - ط أ - 1990.
- ناعوم تشوميسكى - قراصنة وأباطرة الإرهاب الدولى فى العالم الحقيقي - ترجمة قسم الترجمة دار حوران - دمشق، سوريا - ط أ - 1996.

- عولمة الفقر – ميشيل تشوسودوفيسكى – ترجمة / محمد مستجير مصطفى – مكتبة الأسرة – سلسلة إنسانيات 2012.
- الرأسمالية فى طريقها لتدمير نفسها – باتريك آرتو، مارى بول فيرار – ترجمة سعد الطويل – المركز القومى للترجمة – مكتبة الشروق الدولية – ط أ – 2008.
- البيت الأبيض وأسرار المخابرات الأمريكية – جنرال ف ف بتروسينكو – ترجمة ماجد علاء الدين، ماجد بطح – دار الأدهم – ط أ – 1986.
- أيام هزت العالم وغيرت وجه التاريخ – محمود عبد الله – دار الكتاب العربي – ط أ – 2012.
- صناعة الجوع (خرافة الندرة) – تأليف / فرانسيس مولارييه، جوزيف كولينز – ترجمة أحمد حسان – سلسلة عالم الكعرفة – الكويت – 1983.
- إلى أين يسير العالم – إدجار موران – ترجمة أحمد العلمى – الدار العربية للعلوم – بيروت، لبنان – ط أ – 2009.
- الاغتيال الاقتصادى للأمم (اعترافات قرصان اقتصادى) – جون بيركنز – مكتبة الأسرة – سلسلة إنسانيات – 2012.
- عقيدة الصدمة (صعود رأسمالية الكوارث) – نعومى كلاين – ترجمة نادين خورى – شركة المطبوعات – بيروت، لبنان – ط 3 – 2011.

- مواقع إليكترونية مختلفة: (ويكيبيديا – بوابة الأهرام – الإمارات اليوم – اليوم السابع – صدى البلد – bbc news – المعرفة – الوفد – إيلاف – بوابة المصرى اليوم – سكاى نيوز – ياهو مكتوب – بوابة الشرق الأوسط – البوابة العربية للأخبار التقنية – RT Arabic – البوابة نيوز – بوابة أخبار اليوم – دنيا الوطن – مصراوى – بوابة الشروق – وكالة نيوترك الإخبارية – فلسطين أونلاين).

المحتويات

مقدمة 5

الفصل الأول: عصور الأوبئـــة 9

تاريخ الأوبئة فى العالم القديم 11

الأوبئة والجوائح فى العصر الحديث 23

الأوبئة فى مصر قديماً وحديثاً 30

الفصل الثاني: اعرف عدوك 37

الوبائيات.. مصطلحات ومفاهيم 39

أساليب مكافحة وباء كورونا 55

كورونا فى خرائط الموت 62

الفصل الثالث: شائعات وحقائق 67

أرقام وإحصائيات 69

تساؤلات وشائعات 76

أنباء ومفارقات 84

إعلام كورونا.. 92

بين الحقائق والأباطيل 92

الفصل الرابع: مؤامرة أم نبوءة؟ 105

نبوءات فى عصر العلم 107
كورونا.. 119
بين المؤامرة البشرية والعدالة الإلهية 119
صناعة الأوبئة وحروب الجراثيم 128
دراما كورونا.. 133
بين التراجيديا والكوميديا السوداء 133
ماذا فعل كورونا بالعالم؟ 147
الفصل الخامس: مصير العالـــم..مصير كورونا.. 157
أمريكا والصين فى المواجهة 159
تودوروف.. يبشر باللانظام العالمى الجديد 168
مؤشرات السقوط والصعود 173
اقتصاديات الفقر والثراء 182
أعاجيب كورونا 192
بعد نهاية الأحداث.. هل ننتظر أحداث النهاية؟ 210
مصادر ومراجع 219